غدا يأتي الربيع

قصص

صلاح حمدي

١٩٦٢

BOBST LIBRARY
3 1142 01242 6022

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

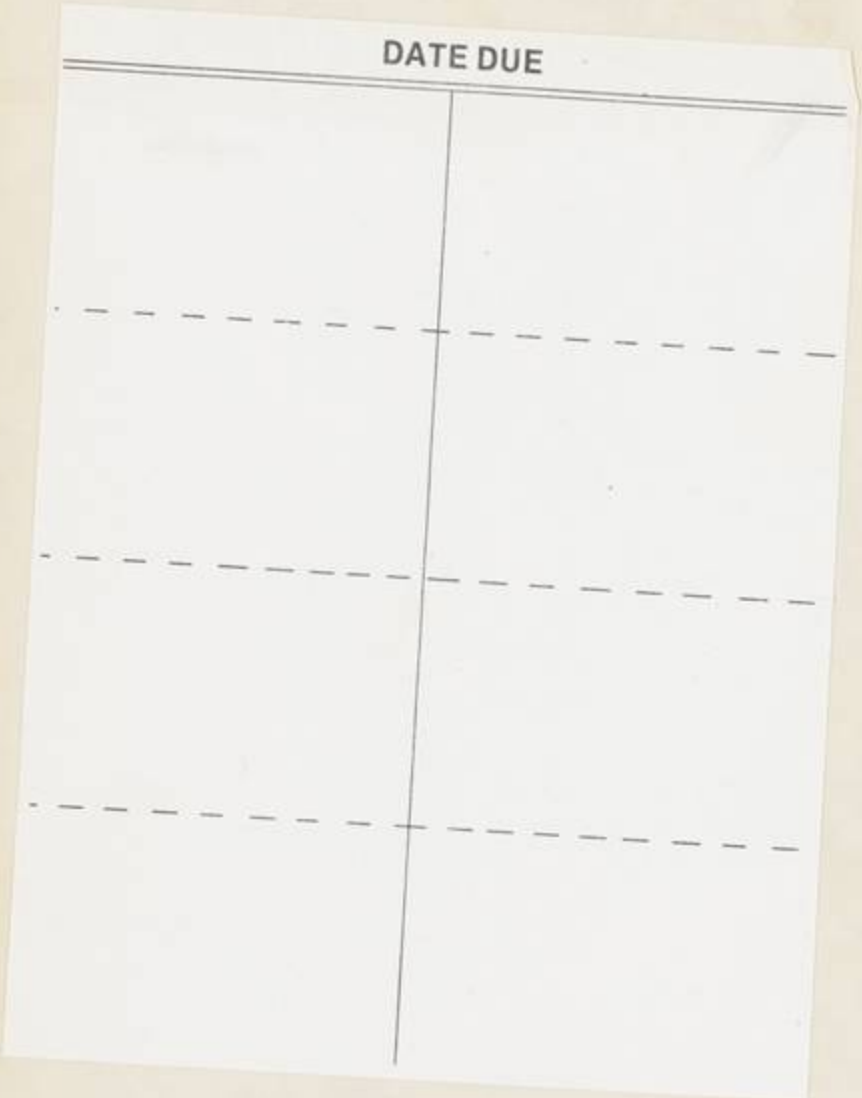
DATE DUE

مع تحيات
اتحاد الأدباء العراقيين

غداً يأتي الربيع

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

Hamdī, Ṣalāḥ

صلاح حمدي
من اتحاد الادباء العراقيين

/Ghadan ya'tī al-rabī'/

غداً يأتي الربيع

بجموعة قصص

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

طبع بمطبعة اتحاد الادباء العراقيين
بغداد

Near East

PJ
7828
M48
.G5
c.1

PJ
7828
.M49345
.G5
1962
c.1

غـــداً

يأتي

الربيـــع

. . . . الى كل انسان . . . .

« صلاح »

غـــداً يأتي الربيـــع

« غداً سيكون يوماً رائعاً . . سيكون
أول يوم من ايام الربيع المشرق »

كانت الشمس قد بزغت قليلاً ، وانتشر الدفء بعض الشيء ، عندما خرج بابير الصياد ، من كوخه الصغير ، ووقف فالقى نظرة على الارض الممتدة امام بصره . كان يرتدي اللباد العتيق . الذي ظل يلازمه طوال هذه السنين ، التي امتهن فيها الصيد . وخاصة في هذا الفصل . وامسك بقبعته المصنوعة هي الاخرى من اللباد ، وترك شعر رأسه المنفوش يعبث به النسيم الرقيق . وبينا التفت نحو باب الكوخ الذي وقفت فيه زوجته ، وهي تودعه بنظراتها الحزينة ، كان طفل صغير تحبو وتخطو نحوه . حتى اذا ما وصل اليه وتعلق بسرواله ، اخذ يصرخ ويرسل بكاءه بصوته المخنوق . وشد بابير بقبضته على شبكة الصيد وتخيلها مليئة بالعصافير ، فافتر ثغره عن ابتسامة خفيفة لاتكاد تظهر . لقد مرت خمسة ايام ينفقها سدى ، لم يظفر خلالها بعصفورة واحدة . لكم كان يشعر بالخجل في اللحظة التي كان يدخل فيها البيت ، ويرمي بالشبكة الخالية وهو لايعرف كيف يبدأ بحكاية هذا النهار الطويلة . ليس بمقدوره ان يقنع زوجته بان الحظ هو الذي لا يحالفه ، والصيادون يعودون كل مساء بشبكاتهم الثقيلة . اخذ الضباب يتبدد شيئاً فشيئاً ، فتنبسط الارض الرطبة بلونها القهوائي على امتداد البصر . وتلفح نسائم الفجر الباردة وجهه ،

ويشعر بثقل في قدميه اذ تعلق بهما قطع الطين في الارض المحروثة حديثاً . وبالامس كتم الفلاح الذي كان يحرث هذه الارض انفاس زرزور جائع ، كان ينقض على الديدان التي كان المحراث يقذف بها خارجاً ، دون خوف ولاوجل . لقد انتحرت زرازير كثيرة على نطع المحراث من أجل دودة متفسخة . ولم تجتذب له واحداً منها . تلك الحبات الصفر المنثورة على شبكته كقطع من ذهب . كان يود ان يعلم اين تذهب هذه الامواج الكثيفة ، واين تحط رحلها ؟ ان صفحة السماء الملبدة بالغيوم لا تبشر باديم صاف . وهو ما يزال يرسل دعواته الى الله من اجل نهار مشمس جميل . وتتسابق الغيوم على اجنحة الرياح . وتلمع قطع التراب الرطبه ، ولكن لماذا لايرضى الفلاحون بسقوط (البه له) الا ان تظل الامطار مستمرة مدة ثلاثة ايام . وتقف قبرتان على مقربة منه ترمقانه بارتياب . لكم يكره هذه العيون الصغيرة المرتعشة خوفاً . ويلقمهما بحجارة تشق الهواء نحوهما . ثم يسبحان في الفضاء والرعب مايزال يدفعهما الى مكان قصي . فيشيعهما بنظرة حزينة . ليس بغريب ما تفعلانه . عليكما اللعنة . انكما دوماً عديمتا الفائدة . وتدور صفحة الارض ، في حلقات واسعة ، وتبدو المدينة من بعيد ، وهي غارقة تحت ثقل الضباب الكثيف . ويبتعد اكثر فاكثر ، ويحس بالشبكة تصبح اكثر ثقلاً على كتفه ، وينحني بظهره ويميل بوجهه نحو الارض . وتطرق سمعه اصوات الطيور المغردة ، من كل حدب وصوب . وتمتد الخطوط القاتمة على امتداد الاراضي المحروثة ، وتضيع على نظره الذي خبت فيه جذوة النور ، تلك الكائنات الصغيرة ، التي تتحايل عليه فترسل اصواتها من جميع الجهات في آن واحد . لا بأس من عناد هذه المخلوقات الوقحة ، فقد تمرس بعناد الحياة والدهر ، في الخمسين عاماً الماضية . ونظر الى اعالي الفضاء ، ينقب عن تلك المجموعات التي تحمل معها جميع آماله ، انه سيوقع عدداً منها في شبكته . وهو لا ييأس من نيلها بالرغم من عنادها . كان انفه

ذو الارنبة الدقيقة معقوفاً على وجهه المستطيل ، الذي عمق فيه الزمن التجاعيد والحفر . وكانت عيناه غائرتين في محجريها فتشع منهما نظرات حادة يخيل اليك انها تنفذ الى الاعماق . ربما يظن فيه البعض انه عجوز غريب الاطوار . الا ان كلمة واحدة ينطق بها بوداعته المعهودة تنفي مثل هذا الشك . وتلوح المدينه على ذلك البعد ، وكأنها غارقة في كتل الضباب الكثيفة . وعبر الجسر الخشبي العتيق الممتد فوق الساقيه . كانت المياه تبدو خضراء عفنه تحفل بالطحالب . لقد سهر في هذا المكان ليلة بكاملها . ولم يفز بصيد بطة واحدة . دق الاوتده على حافة الساقيه ، ونشر الشبكة وغطاها عن اعين الطيور . وبدأ يشعر بعظمة الصبر الذي ينبغي ان يتحلى به الانسان في مثل هذا الموقف ، تلك ارادة الانسان التي هي اقوى من عناد هذه المخلوقات البلهاء . انه لم يأكل ولم يشرب ، بل ولم يدخن السيجارة منذ ساعات طويلة . ولقد حاول ان يكتم انفاسه كلما شعر بصوت اشبه بصوت اجنحة الطائر الذي يحط من الفضاء على الارض . ان سمعه لم يعد مرهفاً لهذه الدرجة . ولكنه يحاول الى اقصى حد ، بان يكون يقظاً مفتح العينين . لكيلا تذهب جهوده وصبره هباءاً . وكان الليل يتقدم في اعماق نفسه ، وهو مايزال ممسكاً برأس الخيط الممتد نحو الشبكة . ان سحبة واحدة سريعة كفيلة بان تلم اطراف مجموعة من الطيور . وهو مقتنع ببطتين بدلاً من تلك المجموعة من الطيور الناعمة . ان امواج الظلام الكثيفة تتطلب من ان يجمد عينيه فيما هو يدقق النظر باستمرار . وليست الكوة الموجودة في المخبأ على سعة كافية . لذلك لاتمكنه من رؤية شيء . واطلق زفرات ساخنة وهو يحتمل الصبر اكثر فاكثر . لكم يرغب في بطة جميلة . لاشك انه يستحق واحدة منها . فهو الذي كثيراً ماحدث زوجته واطفاله عنها . لقد بدأ الجميع يحبونها بملء القلوب . ومن اجل هذه الغاية يريد ان يثبت صدق وعده لهم . وفجأة بدأ رأس الخيط يهتز بين اصابعه . فرفع رأسه ينظر من الكوة بانفعال .

هل يسرع في شد الخيط قبل ان يفلت الصيد ؟ كلا ان الطائر الجميل مازال بعيداً عن الشباك . ومد يده قليلاً لينشر اصابعه التي دب فيها الوهن . يا الهي . هل أحارب من قبل الطقس ايضاً ؟ انه لم يشعر بمثل هذه البرودة وهذا التشنج من قبل . وحرك يديه ليبعث فيهما الحرارة وهو يشعر بلذة الامل الموعود . وصفقت اجنحة الطائرة الذي عاد يحلق في الفضاء ، بينما عض على شفتيه غاضباً . وراح يلعن الحظ الذي جعل منه صياداً مجنوناً . ولماذا هذا الاصرار ؟ ان بمقدوره ان يترك هذا العمل الشاق . ان الطيور جميعها عديمة النفع . هذا ما ثبت لديه اصلاً . ورفع العجوز رأسه الى السماء ، كانت الغيوم قد اخذت بالانقشاع . ونظر الى الكل الطائرة في الفضاء . فاشرق وجهه بالبهجة . وراح يحدث نفسه . . . كلا . . . لا اترك الصيد اللذيذ . لكم هي طيور جميلة . وربط الشباك في الاوتدة وقفز الى داخل المخبأ الطيني جذلاً . وراح يرقب الشباك . ترى هل يطول انتظاره مثل ليلة امس ؟ اربع ساعات عاشها وهو يبترها من اعصابه . ماذا تغير من طبيعة هذه هذه الطيور ؟ انه يعرفها جيداً . فلماذا لاينجح في صيدها ؟ واطل من الكوة . فسارت امواج الليل على صفحة الشبكة الخالية . واخذ النعاس يثقل من جفنيه وهو يحاول جاهداً ان يفتح عينيه لكيلا تأخذه سنة من النوم ، وخيل اليه شيء اشبه بطائر يقف على الشباك . انه جامد لا يتحرك . واخذ يقطب حاجبيه ويتأمل . انه لم يسمع رفرفة جناحيه عندما حط على الارض . ولكنه مازال ساكناً في مكانه دون حراك . ماذا يفعل ؟ ربما هو كائن لاروح فيه . واذا صح ان يكون بطة جميلة ، فلماذا لاينتظر ليأتي نصفه الثاني ، ويكون بذلك قد اصطادهما معاً . عندئذ شعر بسعادة مبهمة تغمر كيانه . ولأول مرة بدا له ان الصيد الذ شيء في الدنيا . ولكن الحيرة سرعان ما استبدت به ، عندما ظل ذلك الكائن في مكانه دون ان يتحرك قيد انملة . وفجأة تبين له ، بان ذلك الجسم اختفى عن انظاره ، وتركه غاضباً يقضم

شفتيه من جديد ، يفكر في هذه الطبائع الغريبة التي لاتستقر على شيء . لقد كانت هذه الطيور شجاعة يوماً ما الى اقصى ما يتصوره الانسان . كان العديد منها يقفز في الشباك في دفعة واحدة دون خوف او وجل . كانت تفعل ذلك مراراً . بالرغم من ان كثيرمنها قد ذهب واختفى دون رجعة . لكم تغيرت هذه الطيور انها تتخوف من ابسط الاشياء . تطير بعيداً بسبب حركة خفيفة من الخيط . وجمع العجوز قبضته حانقاً . لقد اقسم ان يصطاد عدداً منها . ولسوف يقطع رؤوس هذه الطيور التي اصبحت غيرذات فائدة . وتساءل انكان يجد والحالة هذه طعماً في لحمها ، وهو ينفق من عمره القصير هذه الليالي الليلاء . وشعر انه لم يعد يضيق ذرعاً بحالات الفشل كأول عهده بالصيد . لقد اعتاد هـــذه الامور . وقد تعلم الكثير من عادات هذه المخلوقات الغريبة وتوصل الى حل اللغز الذي يحيط ببعض منها . لقد دفع الثمن من حياته من اجل ان يتوصل الى غاياته . كانت احاديثه هذه مبعث السرور لدى الناس . وهو لا يذكر انه بالغ فيها ابداً . واية غرابة في نظرات القبرة الجامدة اذ تحس بخطر محدق . واي عجب في وقفة البطة الخائفة لمدد طويلة . واي جديد في غباء الزرزور اذ يبصر دودة عفنة . واي شك في وحشية العصافير الدورية التي لاتفهم ابداً مغريات الصياد . فتبقى تدور في حلقة مفرغة ، دون ان تنال حبة قمح واحدة ، ودون ان ينال منها الصياد شيئاً ، ولكنه سيخدعها هذه المرة . وسيحمل شبكة مليئة بها . سوف يسلك طريقةوحشية معها هذه المرة . انها لاتعرف الرحمة . ولذلك ينبغي ان لا يكون معها رحيماً .

وأخذت موجة فرح · تلك الطيور الجميلة ، هل سيكون مالكا لعدد منها ؟ خمسين . . . مائة مثلا . كلا . أنه يطلب أكثر من هذا العدد . اذا كان الامر رهن طلبه ، فلماذا لا يطلب الكثير . يجب أن يصطاد أكثر من علي الاكرع الذي لا تتسع شبكته الى اكثر من ثلاثين عصفوراً . ويظل يضرب اخماساً بأسداس ،

ويضرب بعصبية قطع الطين المتصلبة فيفتتها وتتناثر تحت أشعة الشمس كذرات من ذهب . آه . لو يقبض على عدد من هذه المخلوقات العنيدة . ولكن المكان الذي اختاره لشبكته هذه الدره من أجود الاماكن . من تلك الرابية ستتوافد العصافير لتلقى مصيرها في الشباك . وها أن الحبوب الصفراء تلمع بين ثنايا الخيوط . وهذا ما يثلج صدره . انه سوف يبقى على هذا المخبأ ولايهدمه ان حفظ له حظاً سعيداً مع هذه المخلوقات الضئيلة ، التي ابتاعت نصف ما كان ينثره من حبوب كل يوم دون مقابل . فقد خدعه اذن هذه المدة . ووقعت نظرته على سرب كبير من الطيور ، كان يدور في الفضاء كسحابة هائمة . واتسعت عيناه وهو يفتح ثغره في ذهول . ثم أشرق وجهه ببلاهة مبتسماً . ينبغي أن لا يفقد الامل . ولا يدع لليأس مكاناً في قلبه . وأسرع الخطى وقفز الى داخل المخبأ . وقبع فيه وهو ممسك برأس الخيط لاهثاً قلقاً . وبدأ يرفع بصره بين حين وآخر ليرى أطراف تلك السحابة الهائمة ، التي تبتعد وتقترب وكأنها تحمل معها قلبه المتعب الخائف . انها ما زالت تدور في الفضاء . انها ستحط على الارض ولاشك . لتكن فوق شبكته . ولتشبع من هذه الحبات اللذيذة الطعم . انها صغاري الاوفياء . لقد أطعمها لعدة أيام خلت . وليس هو بالطامع والجشع . ألا يقطع هذه المسافة الطويلة كل يوم ؟ لكم هي جميلة هذه السحابة الكثيفة الهائمة . انه يحبها ويتوق اليها . واقتربت زقزقتها نحو سمعه فابتسم جذلا . انها مخلوقات نبيلة ولا شك . ودس يده الى كيس الحبوب . وارتعشت أصابعه وهو يخرج حفنة كبيرة من الحبوب ، وأخذ ينثرها هنا وهناك فوق الشبكة بانفعال وسخاء . ان عمله هذا لايمكن أن يذهب هباء . كانت السحابة الكثيفة تتفرق حيناً ، وتتكوم وتتجمع حيناً آخر . أريدها هكذا قاتمة وهي تتدافع على التقاط الحبوب . . هذا هو الامل الذي ينتظره منذ أيام . أنها لن تخيبه هذه المرة . انها ليست

مخلوقات لعينة . انهـــا رائعة . . رائعة . ليقبع في المخبأ دون حراك . وليكتم أنفاسه الى آخر حد . وتململ نافد الصبر . وظل يرسل بصره الى الفضاء . انها تدور وتدور دون أن تكل أو تمل . انها تقتله ببطء ولا شك ، ان الغيظ بدأ يأكل أعصابه . لكم هو بحاجة الى أن يدخن سيجارة . ولكن هذا يسبب له الكحة. لقد ترك هذه العادة فترة من الزمن . ولكن شيئاً ما يلح عليه أحياناً لان يعود الى التدخين . وشذت بعض الطيور عن العائلة الكبيرة . فحطت على الشبكة لاهثة الانفاس . وترددت أنفاس العجوز في صدره بكثير من الحذر . هل يسحب الخيط؟ ان العدد قليل . ولماذا يكون مغروراً . قد تذهب هذه أيضاً لو انتظر البعض الاخر منها . ها هـــو سرب آخر يقترب نحوه . ربما ذهب عنه شبح النحس الذي لازمه هذه هذه الايام . لقد أحسن الى فقير في يوم ما . ولابد أن تحفظ له صفحة الغيب هـــذا الجميل . وقفزت الطيور قليلا في مكانها ، فارتعدت فرائص الرجل واغتم بعض الشيء ، وحك عنقه المتقرح ، ثم لصق عينيه بفتحة الكوة ينظر الى مجاميع الطيور التي لا تكاد تستقر على مكان . وتوارى بعض منها خلف الرابية . وصفق عدد آخر بجناحيه ، وترك الشبكة متجهاً وجهة مجهولة . وراحت أفكاره في ذهول وشرود . ان الحظ لا يحالفه بسبب هؤلاء الملاعين . وخرج ونثر الحبوب. حيث كانت تلك قد أتت على آخـــر حبة منها . وعاد الى مخبئه مهموم الفؤاد . وأمسك برأس الخيط بعزم ، وأقسم أن يصيد عدداً من هذه الاعداء . ثلاث ساعات مرت وهو يعاني من هذا الصراع ما يعاني . لقد ازداد الان غضباً وحقداً على هذه المخلوقات التي لاتصلها يداه . وبات يشكو من آلامه النفسية ، ويلقي باللائمة على نفسه ، لانه اقتنع منذ مدة ليست بقصيرة . بجـــدوى هذا العمل ، الذي لم يدر عليه شيئاً .

وتقدمت الساعات في غور النهار . لا بأس في ذلك ، لقد ظل أكثر الايام،

ينتظر صيده حتى المساء . وخرج ينثر الحبوب من جديد . ورفع رأسه نحو الفضاء ، كانت ابتسامته الساخرة تشع ببقايا الامل . ولم ير حتى عصفورة واحدة . وأخذ يرهف سمعه منصتاً . لا شيء يسمع في هذا المكان الواسع . الصمت يطبق على الحقول . ما الذي فعله لتهجر هذه الطيور شبكه ، وتبتعد عنها بهذا الجفاء . ولكن لينتظر . فما زال أمامه متسع من الوقت ، وبقيـــة من أمل . كانت بعض ذرات الحبوب قد اختفت تحت طيات الارض ، لذلك فقد نشرها بيده على صفحة التراب . وعاد قابعاً في مخبئه دون حراك . لشد ما يشعر بالجوع . انه يريد أن يأكل كسرة من الخبز . ولتبق هذه الشياطين الصغار جائعة في عليائها ، ما دام هـــذا هو ما يعجبها . انها مخلوقات بلهاء ولا شك ، تقدم على هـذه الترهات . انها لا تملك غير هذه العادات السخيفة . التي لن تنطلي عليه ، ولن تخدعه . وصمم ان يوقعها في شباكه . وشد الخيط في يده ، واحكم قبضته ، ثم أرسل نظرات شزراء من خـلال الكوة . عندئذ وجد عدداً من الزرازير تقفز على الشبكة . كانت تأتي فرادى ، ثم سرعان ما تقفز خارج منطقة الصيد . وقضم الشيخ شفته ، وهـــو يصمم على الانتقام لنفسه من عذاب الانتظار . وند منه صوت اثر اندهاشه بمكر هـــؤلاء الملاعين . انها تبتلع ذرات الحبوب وهي تحط فرادى على المكان . ولا يمضي وقت طويل حتى يكون قد شبع منها . ويترك المكان خالياً من كل حبة . عندئذ . ستذهب هذه المجموعة عنه أيضا . ولا تعود اليه ثانية . وبقي ينظر منذهلا . وكان هناك سرب آخر يحوم فوق الشبكة منذ لحظات ، وسرعان ما حط بمجموعه فوق الشبكة دون خوف . وأخذت تلتقط الحبوب بسرعة متناهية . هل يسحب الخيط ؟ أن يده بدأت ترتجف . وفجأة قفز زرزور ، وصفق بجناحيه محدثاً صوتاً مزعجاً . فكان ان طار السرب بمجموعه مرة واحدة ، وراح يحوم في الفضاء من جديد . وتضم شفتيه من جديد . انه سينتقم هذه المرة بضراوة وعنف . انه سيقاتل هـذه

الزرازير الحمقى . لكم كانت لحظات ابتهاجه قصيرة بسبب غبائها . كان النشاط قد دب في أوصاله مع وصول ذلك السرب ، لقد اخافته الزرازير . وحسب انه سيحمل شبكة مليئة ، ويدهش بها أهل المدينة . كانت ستصبح اعجوبة لزوجته وأطفاله وأهل المحلة . ودوى صوت طلقة من بعيد ، وأمتلأ الفضاء بالطيور ، أخذت تطير وتتفرق فزعه مروعة . كانت العصافير تعيش باعداد هائلة قبل خمسة عشر عاماً . في هذه البقعة من الارض . ولكن هؤلاء المجانين ، قد أبادوا بينادقهم أكثر من ثلثي ذلك العدد . وتململ في جلسته داخل المخبأ . عندما وجد بعض الاسراب تتجه نحو الشبكة . وتحط أعداد من الطيور بالقرب منها . ثمة طيور كانت تنفر اذ ترى الخيط الممتد نحو المخبأ . انها عصافير وحشية لم تألف بعد منظر الشبكة والمخبأ ، وهي أكثر حمقاً من الزرزور ، لانها لاتعرف كيف تقفز في مكانه ملتقطاً حبة لذيذة . كان الخدر قد تسرب الى قدميه . ونظر من خلال الكوة . اقترب . . . اقترب . التقط الحبات ، انها كقطع الذهب الصفراء . انها لذيذة . لماذا تجبن هذه المخلوقات ؟ وقفز قلبه في مكانه عندما أبصر بعدد من الزرازير تحط على الشبكة . انها جاءت لتصفق بجناحيه وتخيف هذه الاسراب . ولكن الزرازير بقيت هذه المرة ، واستمرت تلتقط الحبات ، وكان هذا مغريا لبقية العصافير ، فاخذت هذه تتشجع قليلاً ، وتقترب شيئاً فشيئاً من الشبكة . حبة واحدة ، ثم تأكل بنهم وجنون . ولم لا ؟ انها الحنطة الممتازة . وحدث ما لم يكن بالحسبان . لقد دب الخلاف بين البعض منهم . ثم تطور الى قتال عنيف . أخذت المناقير تعمل فعلها في نتف الريش ، والقلق يأخذ بلب الصياد ، وهو ينظر الى الكومة المتخاصمة في جزع وغيظ . لقد افسدوا عليه الصيد . ليت كل هذا كان يحدث على شبكته . كان يعرف عندئذ كيف تلقى حتفها فيها . وتقدم عصفور شجاع نحو الشبكة ، وبدا له طيراً وديعاً نبيلاً ، وارتج الخيط في يده ، مسكين هذا

العصفور ، انه لن يصيده وحده . وثمة قبرة كانت تصيح بصوتها الحاد وهي تنظر بمكر ودهاء . . . بيو . . . بيو . . . ويقفز العصفور أيضاً خارج الشبكة .

وصاحت القبرة من جديد . بيو . . بيو . . فتمتم الصياد مع نفسه . . قرلقورط ... بيو بيو ! انك طير بليد ولاشك . أنا لا ادري لماذا لم يسموك حماراً . عادت القبرة تنظر بمكر ودهاء . لماذا لا يتجه هذا الطير الوحشي نحو الشبكة ؟ وحطت عصافير صغيرة بالقرب منه ، كانت زاهية الالوان . هذا حسن . هؤلاء الصغار من الطبقة (النبلاء) . لكم أنا احبهم. هؤلاء الزرازير الحمقى ستصفق باجنحتها ايضاً . وتلك القبرة البليدة ستصيح بصوتها الحاد . وبلع ريقه وهو يشعر بحلقه قد جف ، ورأسه يكاد يحترق . واتسعت عيناه حينما رأى القبرة ، وهي تقترب من الشبكة . واستبد به الغضب . واخذ يشعر بكرهه الشديد على جميع القبرات والزرازير التي تفسده عليه صيده كل مرة . آه ، لو يمسك بواحدة منها . انه سوف يقطعها ارباً ارباً . ان نظراته لاتفارقها بعد . انه يريدها ، حتى ولو واحدة منها . ان كانت هذه اللعينة تملك قليلاً من الشجاعة ، فلتصعد على الشبكة . انه يقظ حذر ، وانه على استعداد لخوض المعركة . وخيل اليه بان القبرة تنظر اليه من طرف خفي. سوف يوقع بها . وتقترب القبرة وتقترب . وترفع رأسها وكانها تريد ان تصيح بصوتها الحاد . ولا يوافق مكانها لان يسحب الخيط . ولكنه سيظل لها بالمرصاد . وترفع رأسها من جديد . هذا ماينذر بالخطر . انها ان تصح . وارتعدت فرائصه . انها سترى الحبات الذهبية . وستأكل وتأكل حتى تشبع . وسوف تنسى صياحها المعهود . ولكن القبرة مازالت جامدة في مكانها . ثم صاحت بصوتها الحاد . بيو . بيو . فهبت الطيور من مكانها مرة واحدة ، وراحت تخترق اجواء الفضاء نحو مكان قصي . وتدلى رأس الصياد العجوز ، على صدره في ذهول وحيرة ـ لقد تكرر فشله واشتدت وطأة الصراع هذه عليه ـ ولكن لماذا يكدر عليه نفسه مثل هذا

الامر . انها ليست المرة الاولى . ولم يمض وقت طويل ، حتى وجد ان ثمة قبرة تأكل الحبات بنهم وصمت ، كانت ترفع رأسها بين حين وآخر ، وتفحص المكان ثم تستمر في التقاط الحبوب . واشتدت قبضته على الخيط ، وانسحبت فتحة الشبكة نحو المخبأ بسرعة متناهية ، والتصقت اطراف القبرة على جسدها الصغير دون حراك . كانت تبدو مروعة فزعة . انها لن تنطلق خارجاً بعد . ولن تفلت عن الشباك . انه سيقطع رأسها انتقاماً لعذابه . كلا . انه سيحملها الى المدينة حية ، ولكي يعرفوا انه قد تمكن من صيد قبرة واحدة على الاقل . وانه سوف يصطاد الاخريات يوماً . وسحب الخيط الى داخل المخبأ ، ثم قفز فجأة الى الخارج ، ورفع حجراً والقى بها مجموعة من الزرازير ، باقصى ما يملك من قوة وجهد . وتفرقت الطيور في خوف وهلع ، إلا ان زرزوراً واحداً بقي في مكانه مهيض الجناح ، وكان الدم يخضب ريشه الاسود المنقط بحبات من البياض . وأخذ الزرزور يفر من بين يديه ركض المستميت ، والعجوز يلاحقه بخطوات واسعة متعثرة احياناً ، وثارت الاتربة والغبار في المكان الذي سقط فيه العجوز . كان يلهث ووجهه يتصبب عرقاً . ليذهب الى الجحيم ، وليحمل جرحه معه حتى يقضي نحبه في مكان ما . واختفى الزرزور الجريح بين الاحراش ، وعاد الصياد العجوز الى الشباب . والقى نظرة حزينه الى القبرة التي كانت قابعة في مكانها داخله . ودوت اصوات بندقية من بعيد . وامتلأت صفحة السماء في الافق بالطيور . كانت اصواتها تملأ اذنيه ، واخذ يثرثر مع نفسه ، وعندما القى بالشباك على ظهره ، القى نظرة على المكان الذي بدا خالياً تماماً من تلك الحبات الذهبية ، التي استقرت ولاشك في اجواف تلك الشياطين . ولما اقترب من مخبئه ، ووقع بصره على ما حدث . زاغت عيناه في ذهول . فلشد ما راعه ان يجد كيس الحبوب يكاد يكون خالياً تماماً ، اين ذهبت هذه الحبات الذهبية ، هل نثرها كلها دون ان يشعر بالبذخ والاسراف ؟ وخطا عدة خطوات ثقيلة ، ثم القى نظرة

كلية نحو المدينة ، واطبق يده على الشباك ، بينما كان طائر كبير يحلق فوق رأسه ، وهو ينتف في ريش عصفور صغير وقع فريسة يده . كانت الشمس تميل نحو المغيب والاصوات ما تزال تملأ الجو والاراضي المنبسطة ، وتدلى الشباك على كتفه . واخذت القبرة تصارع من اجل الافلات من الخيوط التي قيدت اطرافها وكباتها . وتساقط الرذاذ ، ودارت اسراب من العصافير قلقه في الفضاء ، وبدت الارض ، رطبة قليلاً مما يثقل الخطو حتى اخذ يجر قدميه جراً . واجهدت القبرة في صرعها بعد ان ضاق بها المصيد اكثر فاكثر ، كلما تدلى الشباك اكثر ، واخذ يصطدم بساقيه المتعثرتين . وفجأة انفتح شق في الشباك ، واخرجت القبرة رأسها من الثغرة ، واخذت تجهد نفسها دفعاً الى الامام . حتى تمكن من القفز خارجاً ، وراحت تنطلق في الارض باقص ما تستطيع من السرعة ، وهي فرحة جذلي . وعندما تنبه الصياد العجوز الى حقيقة الامر ، اسقط في يده ، وكست وجهه سحابة من الحزن والانفعال . وراح يفكر في ما حدث له طوال اليوم ، فتمر في خيالاته الصور القاتمة التي تكاد تفقد عقله . ثم امسك بكيس الحبوب ، واخذ ينثر بقية الحبوب هنا وهناك باصابع مرتعشة ، وبارتباك وانفعال ، حتى أتي على آخرها . وفجأة خطرت له خاطرة عجيبة ابتسم لها واغتبط . كان لها فعل السحر . اجل . ستبقى هذه الحبات الذهبية اجل ، ليوم غد . وهو يجزم بانه سوف يصيد اعداداً كثيرة من هذه المخلوقات التي تكاد تصبح غير ذات فائدة . اجل ، سيأتي ذلك اليوم . ثم اسرع الخطى نحو المدينة بانفاس لاهثة . كان يردد مع نفسه في ثقة وعزم . سوف يعود غداً . سيعاود الكرة . انه لن يجبن امام هذه الكائنات الضعيفة . بل انه سيلحق بها الهزيمة الساحقة . انه سيعود غداً . وسوف يكون يوماً رائعاً . غداً سيكون أول يوم من أيام الربيع المشرق . بقيت فرصة اخيرة في الشباك الذي تركه عند الساقيـــة . لو كان يملك بندقية صيد ، لعرف كيف يقتل العشرات منها بطلقة واحدة . ولكنه لا يرغب في

قتلها . يا الله . ما هذا ... مجموعة كبيرة من العصافير عند الساقيه . يا الله ماذا حدث ؟ لقـــد وقع الجميع في الفخ بسحب الخيط لاول وهلة . واخذ يسحب ويسحب ... ويتمتم مع نفسه .. يا الله . اني لا اطمع ابداً . اريد عدداً منها فقط . اها ... الآن كل شيء على ما يرام .. كنت ساصيدها قبل اليوم . اجل . ولكن المسألة دائماً تعوزها الحظ انها مسألة قسمة ونصيب . طبعاً مثل اي رزق آخر . ايه . الله يعطينا الرزق ... ترى هل انه يحلم ؟ ...

في القريـــة

« ـــ سوف اشتري لك قطعة القماش .
ـــ متى . متى . انك مازلت تقول هـذا
منذ اشهر .
ـــ غـداً . . . »

كانت القرية الشماليه ما تزال على حالها منذ عشرات السنين . أكواخ من الطين متهرئة ، سواقي صغيرة متفرعة . وروابي ترعى فيها المواشي ، فتعود مع الغروب الى زرائبها مع رعاتها وهي ترسل ثغاءها ويعارها . وأهل القرية على على حالهم في حركة ودأب مستمرين بين فلح الارض والحصاد . كانت الوجوه الشاحبة تطالعك من الاكواخ وكأنها تستر على قصة طويلة لها جذور وأسباب . وهكذا كانت فصول السنة الاربعة تتعاقب في هدوء ورتابة . وعندما احمر الافق ، ومالت الشمس نحو المغيب كان أحمد واقفاً بباب الكوخ ، وهو شيخ كث اللحية ، في وجهه قسمات تنم عن القوة والهدوء . تلفه أطياف وذكريات الماضي الذى طمر عشرات السنين في هذا المكان . وعندما نفث بدخان سيجارته وأرسل بصره نحو الطريق الممتد أمام الكوخ ، كانت زوجته تعود تواً حاملة الجرة على كتفها وهي تعاني من الجهد والتعب الكثير . واتكأ أحمد على حافة الباب ، وما زال يرسل بصره عبر الحقول المترامية التي كان الفلاحون ينتشرون فيها ... متى يعود ابنه علي من الحقل .... انه قلق اليوم ... يريد أن يحدث أحداً عن خلجات نفسه ... ومرت بعض النسوة وهن يحملن جرارهن المملوءة بالماء وانطلقت ضحكاتهن

في خفر وحياء . . . كانت واحدة منهن عجوز تجر قدميها في المؤخرة في جهد وعناء وهي تلهث وتتمتم مع نفسها . . . ياللتعب . . . . ليس لي أحد يحمل عني هذا العمل . . . . . ونظر أحمد نحوها مشفقاً . ثم خف وتلقف جرة الماء من على كتف زوجته وهو يقول

ـــ أنت بحال أحسن من هذه العجوز . . . .

ـــ اني تعبة يا أحمد . . .

ـــ لا بأس . . سوف أشتري لك قطعة من القماش تخيطين منها أجمل الملابس . . .

ـــ متى . متى ؟

ـــ غداً . عندما أذهب الى المدينة .

ـــ عندما أذهب الى المدينة ؟ ! انك ما زلت تقول هذه العبارة منذ ستة أشهر .

والقت نجيبة بجسدها على الارض ، وأسندت ظهرها على الحائط وهي تشعر بتعب يكاد يخنق منها الانفاس . . . . قال أحمد وهو يقترب منها . . . .

ـــ انك تعلمين بأن الذنب ليس هو ذنبي .

ـــ ذنب من اذن ؟

ـــ انني أنتظر انتهاء فصل الحصاد . لأجد في يدي بعض النقود .

ـــ ولكنك تعلم بأن حال يدك لا يتغير قبل الحصاد وبعده . فأنت غارق في الديون قبله . وأنت جامع ما تسدد به الديون فيما بعد لتغرق فيها من جديد . . أوف . أوف .

ـــ ليكن لديك بعض الصبر يا نجيبة . . . ينبغي أن تكوني قانعة بالحال .

وسرحت نجيبة بنظرها مع امتداد الحشائش الخضراء على بساط الارض

الواسع . وشردت بفكرها الى الماضي السحيق . لقد مات زوجها مبكراً . وأخذ الناس يلوكون سمعتها كالعادة اذا ما بقيت المـــرأة أرملة تعيش لمفردها . . . . لعنة الله على حظها . . . انها لم تنعم بالسعادة ولا بالراحة النفسية . لقد تزوج أحمد بها ورضيت به بالرغم من كبر سنه . ذلك انقاذاً لسمعتها وخلاصاً من أفواه الناس وهاهو يجلس الآن بالقرب من الباب . . . لا عمل له طول النهار غير التدخين . . ومراقبة الناس . . . . ولولا ابنه علي الذي ماتت أمـــه لماتوا جميعهم جوعاً . . . ورفعت نجية بصرها نحو الباب . لقد كان أحمد ينظر اليهـا وقد ركـز عينيه في عينيها . فاسبلت نجية جفنيها على عينيها العسليتين وراحت في نصف أغمـاءة من فرط الدوار الذي شعرت به في رأسها . وفي هذه الاثناء سمعت صوت زوجها وهو يقول خارج الباب .

— سيكون الحال أحسن بكثير في المستقبل . . . يا نجية .

— ايه . لنرى . . . فصاح الشيخ وهو يمدد في صوته .

— كل ما أطلبه منك هو الصبر وعدم اليأس .

كان العجوز يحاول جهده في استرضائها وكأنه يخشى أن تفلت من يديه . انها حزينة في كل وقت . . . وهي تبدو غير راضية معـه دائماً . . . لماذا ؟ ما هو السبب ؟ أخذ أحمد يفرك جلد يده المتقرح وهو يفكر بانفعال وقلق . وبينما هو غارق في بحر أفكاره الشاردة . مرت نجية بالقرب منه بخطوات متلاحقة مرتبكة وأسرعت في الطريق دون أن تقول شيئاً . فاستوقفها الشيخ قائلا : ـ

— الى أين يا نجية ؟

— الى العين .

— ولكن الجرة ليست معك . فماذا تفعلين هناك ؟

— لقد نسيت الطاسة . قال الشيخ حانقاً .

— لعنة الله على الشيطان . ولكن لماذا نسيتها ؟

— لا أدري . المهم اني نسيت . قالت نجيبة هذه بصوت متهدج واستدارت على عقبيها وسارت بخطوات سريعة وأختفت عن الانظار . أخذ الشيخ يحدث نفسه في قلق وحيرة . . أين ذهبت . انها كانت مرتبكة ومنفعلة . لابد انها ستعود بعد قليل . سوف يفهم منها كل شيء .

وسارت نجيبة من وسط القرية وهي تشيح بطرفها عن الناس في حياء . . انهم ينظرون اليها بنظرات ذات مغزى . . انهم لا يعرفون ما تقصده . لقد ابتعدت عنهم وأخذت تقترب من المنعطف الذي ينتظرها فيه أكرم كل يوم . وعندما رفعت بصرها والتقت عيناها بعيني أكرم صاحت بفرحة ممزوجة بالخوف .

— جئت . . يا أكرم لأني لا أطيق الصبر على هذا الشيخ بعد

وأمسك أكرم يدها وهو يحدق في وجهها الجميل في ارتباك . وأخذ يطيل النظر في عينيها وهو مرتبك الى درجة لا يعرف ماذا يقول . . وأخيراً قال

— انني . . انني يا نجيبة . . أحبك .. ولكن أشفق على ذلك المسكين .

— آه يا ظالم .. لقد جئتك الى هذا المكان لاسمع منك مثل هذا الكلام .

وأخذت نجيبة تبكي في صمت ، وتمسح دموعها من خدها بأصابعها الرقيقة وهي متدلية الرأس ، وصدرها يصعد ويهبط من شدة العصبية . ثم رفعت رأسها ونظرت الى أكرم وقالت بصوت حزين وفي ندم .

— لا بأس . أن ما فعلته هو العار الذي جلبته على نفسي . وسأظل أقاسي منه الى الابد . فانتفض أكرم في مكانه الذي كان قد جلس فيه على الارض ، والذي كان قد أحنى ظهره . فاشعل لفافة التبغ . ثم نهض نحوها وأخذ رأسها الصغير الجميل بين يديه وقال بأشفاق

— ألا تعرفين بأني أقسمت على أن لا أحب سواك . أنت لي يانجيبة

بالأمس واليوم . . وغداً . سآويك عندي حتى وان علمت بأني سوف أقتل .

كان الشيخ أحمد لا يزال جالساً بالقرب من الباب الخشبي العتيق وهو غارق في أفكاره . أين ذهبت ؟ أنه يخشى أن تأخيرها هذا سيجلب عليه العار والفضيحة . وتذكر الماضي يوم أن حدث حادث اختطاف في القرية ، حينما اختطفت ابنة الحاج مولود . فقد مضت خمسة عشرعاماً وهو يعيش في هذه القرية منكس الرأس لا يجرؤ أن يرفع بصره الى الناس عندما يخترق الطريق وسط القرية . وكثيراً ما سمع منه بالذات بأن الناس عندما يرمقونه بنظراتهم يخيل اليه أنهم يغرزون سهاماً في صدره . وقال له أيضاً . . أنا الذي أعرف مقدار تعبي في تربيتها وافهامها أمور الحياة حتى نمت وكبرت . لقد قال له في ذلك الوقت بلهجة حازمة :

— وماذا تفعل أيها الحاج غير أن تقتلها للخلاص منها ومن عارها .

أنه يتذكر هذه الاشياء ، وهو يشعر أنه يرى شبحاً مخيفاً يرغب في طرده . انه يخشى من التفكير في الماضي وكأنه يخبيء في أعماقه سراً رهيباً . ثم حدث نفسه بلهجة حزينة . . سوف انتظرها نهار اليوم بفارغ الصبر . . انها ستعود الى بيتها ولا شك . . أين تذهب . ها ؟ . .

ولم يمض وقت طويل حتى رأى الشيخ بعض النسوة وهن يهرعن نحوه في ضجيج ، ونادت احداهن من بعيد قائلة . .

— أحمد . . أحمد . . لقد هربت نجيبة مع أكرم ابن الراعي العم داود

فقفز الشيخ من مكانه وأوصاله ترتعش ، وأنفاسه تتلاحق حتى يكاد يختنق . فصاح بصوت مرتجف مادا يده في توسل

— أين ذهبا . ؟ هل هو صحيح ما حدث ؟

— نعم . نعم

واخذ الشيخ يعض على شفتيه في حنق وغضب وقد اتسعت عيناه بشكل مرعب ... ماذا سيكلفه هذا العمل الذي قامت به تلك الحائنة ؟ منذ خمسة عشر عاماً لم يحدث شيء من هذا القبيل في القرية . ولكنه لا يبقى هو مثل الحاج يعاني من لطخة جبينه . وانما سوف يسرع الى غسل العار باسرع ما يمكن . وغرق الشيخ في اللحظات التالية في صمت كئيب لم يرفع فيها بصره من نقطة على الارض كان قد ركز فيها بصرة .

اما اكرم ونجية اللذان كانا قد وصلا منذ ساعة الى القرية الجديدة التي التجئا اليها . كان اكرم قد قضى زهاء الساعة الى ان عثر على هذه الغرفة الصغيرة التي اوتهما في هذه القرية التي لا تعرف عن قصتهما شيئاً . وقامت نجية وهي تسوي من هندامها المهلهل تدير عينيها في ارجاء الغرفة الفارغة وهي حائرة لا تعرف ماذا تفعل . وحينما عادت وجلست في مكانها القرفصاء اخذت تنشج بكاء مرير دون ان تعرف لذلك سبباً . وعندما سألها اكرم باستغراب .

ـــ ولكن لماذا . لماذا تبكين . قالت :ـ

ـــ لا اعرف السبب اني اشعر بانقباض في صدري .

واستمرت تبكي عندما وجد اكرم نفسه عاجزاً في اقناعها بالكف عن البكاء حتى بح صوتها واحمرت عيناها حتى اصبحتا وكانهما غارقتان في الدم . كان الشيخ احمد قد اخفى وجهه بين يديه وراح في نصف اغماءة . عندما دخـــل ابنه مغير الوجه اشعث الشعر بعد ان قضى النهار بكامله في الحرث ، فلوحت الشمس لونه بلون اسمر قاتم . وبعد ان القى بالطرد الذي كان يحمله على ظهره على الارض ، ووضع الادوات الحديدية وقارورة الماء كل في مكانه . القى بنفسه على الدكة المبنية من اللبن والطين قال .

ـــ لو سمحت لي يـا ابي امدد رجلي هكذا قليلاً . وكأنه لم يكن ينتظر

الجواب ، فاستمر يقول بعد ان اخرج من صدره صوتاً مبحوحاً اشبه بانين .

— لم اشعر قط بمثل التعب الذي اشعر به الآن . اذ لايوجد جزء في جسدي يخلو من الالم ... قيظ شديد .. ونهار طويل . رايت اطراف القرية هذا اليوم صفراء وكانها وجه ميت أصفر شاحب . وترددت في صدره انفاسه كصوت حشرجة . ثم استمر يقول :

— أخ ... لكم هي لذيذة مثل هذه الراحة ... اني ارغب في النوم قليلاً يا ابي لو سمحت ... اقول لو سمحت . ها ؟ ...

سكت علي برهة ، ولكنه انتفض من مكانه عندما انتظر الجواب دون جدوى . فنهض واتجه نحو المكان الذي كان والده جالساً فيه . ووضع يده على كتف الشيخ برفق وقال كالهمس ...

— ابي . ابي . هـــل انت نائم .. ؟ هب الشيخ واقفاً وكانت شفتاه ترتجفان . واخذ يرغي ويزبد صائحاً ..

— انت تسأل عن النوم يـا بني . انـا الذي كنت افرش الحصيرة اليابسة واضع رأسي على قطعة حجرية واغرق في نوم لذيذ ... انا يـا بني سوف لا اعرف طعماً للنوم بعد اليوم . وقف علي في مكانه جامداً وقال باستغراب .

— ماذا حدث يـا والدي . اراك عصبياً جداً ؟ اراد الشيخ ان يسترسل منفساً عن كربه إلا انه شعر بخفقة قوية تعصر قلبه فاكتف بالقول .

— نجيبة هربت . مع ...

— مع من ؟

— مع اكرم ابن الراعي . فامتقع لون الشاب واخذته الغيرة على ابيه الذي راه في مأزق يهدد شرفه وسمعته . ومرت بعض الدقائق وعلي مازال يفكر .. ولكنه تزوج من هذه الحية الرقطاء بعد وفاة امه المسكينة . وساد بعض الصمت

صاح بعده علي في وجه ابيه بعصبية .

ـــ ولكن من قال لك بان تتزوج من هذه الشيطانة ؟

ـــ اسكت . انت ايضاً تحاول ان تجرح مشاعري . لقد قصصت عليك في يوم من الايام قصة الفضيحة التي مادت بها الارض في هذه القرية منذ خمسة عشر عاماً ... انت تعرف يا بني العادات الكردية ، وما يجب عمله من اجل مسح وصمة العار . فانت لست صغيراً . ولا ترجع الى قولك لماذا تزوجت او ما اشبه . لقد حدث ما حدث فعلاً . انك ولاشك تفهم ما اقصد . وانني اصارحك الآن بانني كنت اعلم بلقاءات نجية مع ذلك الشاب الاحمق . ولكنني انتظرت بقوة ارادتي حتى هذا اليوم . انتظرت لارى ماذا ستكون النتيجة . يخيل لي الآن بانني رأيت شبح هذه الفضيحة طوال خمسة عشر عاماً . كان علي ما يزال واقفاً مسمر القدمين شامخ الرأس وقال وهو مزهو بقوته وشبابه .

ـــ وما العمل الآن يا ابي ؟

ـــ كنت افضل الموت لنفسي قبل هذا الحادث . ولكنني اقول بكل تأكيد بانني مضطر الآن الى قتلها .

ـــ إلا توجد طريقة اخرى . مثل اختطافها وارجاعها ..

ـــ كلا . كلا ... هكذا هز الشيخ رأسه مؤكداً ما ينوى عليه في هذه اللحظات . وبدأ الشيخ يشعر براحة نفسية ، كما يشعر بان رأسه شامخ ، ويمكنه ان يتحدى جميع القوى التي تعترض طريقه . ولكن الم دفين كان يحز في قلبه عندما يجد نفسه انه مضطر الى قتل انسان . تلك العادة الازلية المتبعة بين العشائر الكردية . جلس الابن واسند راسه على يده مهموماً عندما سلم بما سيقع لنجية بيد والده . وفي هذه الاثناء سمع صوت والده الذي كان قد وقف بالقرب منه مبتسماً يقول .

— ولكن ضميري سيرتاح الى الابد .

— ولكنك تعيش في عذاب السجن بقية عمرك . يـا ابي .

— قلت لك بان ضميري سينعم بالراحة . واستطرد الشيخ يقول .

— ماذا كنت تفعل لو كانت شقيقتك هي مكان ما عملته نجية . الم تكن تقدم على قتلها . قال علي بسرعة وثقة .

— فعلاً . كنت سأضطر الى ذلك . هز الشيخ رأسه في يأس .

— نعم . لان التقاليد تقضي بذلك . لاول مرة احس بذلك .

وسكت الاثنان . كان كل منهما يفكر في حيرة وحزن . كان علي يستعرض ذكرياته عن الماضي ، وما سمعه من والده من اخبار هذه القرية . هـذه الروابي والمروج التي تتحول الى بساط اخضر في الربيع مسرح لقصص المأساة في الغرام والحب والحرمان ... قلوب تخفق بالحب سراً وتحت لفائف الحرمان . ونظرات تلتقي مع بعضها بنشوة واشتياق ، ويعصر عذاب الحب العاطفة في القلوب . ولكن السنوات تمر وتمر . وكل هذه تتحول الى رماد الذكريات دون ان يكون هنالك تبدل او تغيير يذكر . واذا مـا حدث لمن يحب علناً فالويل له من اشد العواقب . كل هذه الامور كانت مفهومة لدى الناس في القرية . ولكن شخص واحد ، وهو اكرم ابن الراعي كان لا يعبأ بهـا ، حينما يجلس على الراية التي تطل على الساقية الصغيرة يراقب منها النسوة اللائي يملأن جرارهن من العين . وما ان كان يرى نجية وهي قادمة نحو العين حتى يروح ينفخ في نايه اللحن الحزين الذي اعتاد ان يودعه فيه وكانه يرسل اجزاء من احشاءه فترجع ارجاء الراية صدى سحر عجيب من هـذه الانغام . كان يمضي في حاله هذه حتى يجد اغنامه وقد تفرقت هنا وهناك فينهض وهو يلعن هـذا الحيوان الذي لا يقر له قرار في مكان ما . عندئذ تطرق سمعه ضحكات النسوة الناعمة

اللاتي لاحظن من امر الراعي الكثير مع نجية دون ان تجرؤ واحدة منهن على الجهر بشيء . كانت نجية تبتسم وهي تشعر بخجل امام النسوة ... انها تفكر في الراعي الذي وقع في حبها ، ولكنها لا تريد ان ترفع بصرها نحو الراية لانها تشعر بالحياء . لقد اصبحت هذه العملية جزء عادياً من حياتها اليومية . وامتزجت هذه الانغام بخيالها حتى اصبحت كحلم او طيف . وهي عندما تسمع هذه الانغام التي تمس شغاف قلبها . اذا ما تضاحكت النسوة حواليها انتفضت من ذهولها خجلى وقد استبد بها الانفعال والارتباك . وتكررت الايام على هذه الحال . وتحول ذلك الاعجاب في اعماقها الى شيء يخفق له قلبها . الى ان جاء يوم ظلت فيه نجية لا تعلم من عالمها غير شـــيء واحد وهو الراعي . والراعي . الشاب الوسيم الذي يحبها . ثم اخذت تمنى نفسها بامال كثيرة ... بالخلاص من الشقاء الذي لازمها بزواجها من الشيخ . وفي ليلة مقمرة من ليالي الربيع الماضي ، خرجت نجية من البيت واتجهت نحو العين ... اجل لقد اشار لها اكرم ببعض الاشارات ... لقد فهمتها وما قصد بهـــا .. الليلة .. عند العين .. واخذت نجية تلتفت هنا وهناك . واخذت تشعر بالخوف عندما وجدت المكان خالياً غارقاً في صمت موحش . كانت تتخيل الراية والانغام التي تاتي من بعيد فتتلاشى مع وصولها اليها . اين هو ... هل كان يخدعها عندما اشارلها ؟ واخـذ القلق يأكل اعماقها . لقد خرجت في مثل هذا الوقت ولم يعبأ إن كان زوجها يشك بها . واخذت تتساءل مع نفسها . هل كان اكرم مازحاً معها ؟ وفي هذه الاثناء برز اكرم من بين الظلمة ، فتراجعت نجية في مكانها قليلاً ، قبل ان تتأكد من ان القادم هو نفسه . عندئذ نادى بها اكرم بصوته الرقيق كالهمس .

ـــ انا اكرم .. لاتخافي . وعندما سمعت نجية صوته لاول وهلة ، ولم يكن قد سمعه من قبل بدأ فؤادها يخفق بشدة . وفي اللحظات التالية كان اكرم واقفاً

بجانبها وهو يتردد في ما يقول ... واخيراً ابتسم قائلاً ..

— هل هذه حال ؟

— كيف ؟ أنت الذي أنت الذي أشرت بالمجيء صباح اليوم .

— نعم . لأني كنت أرغب في رؤيتك من قريب .

— وأي حال تحدثت عنه ؟

— أقول ذلك في حظي النحس . انك لست الفتاة حتى أسرع في طلب يدك للزواج .. عند ئذ كانت نجيبة تتمثل في خيالها صورة الشيخ وهو يقتعد الارض بالقرب من باب الكوخ طول النهار . ثم رفعت بصرها الى أكرم وقالت :

— ماذا أقول ؟

— أنت تضحكين الآن بسرور . أنت تضحكين معي أليس كذلك ؟

— نعم .

— كان يمكن أن تنعم بسعادة بالغة لولا زوجك .

— الشيخ أحمد ؟

— على أي حال هو زوجك . لماذا تنكرين ذلك ؟

— أنا لا أنكر ذلك . ولكني لا أحبه أبداً .

— ولماذا تزوجت به اذن ؟

— تعرف بأن المرأة التي تبقى أرملة بعد موت زوجها يلوك الناس سمعتها اذا لم تتزوج .

وانتهى لقاؤهما في تلك الليلة وكل منهما يفكر محدثاً نفسه .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟ لكم كان لذيذاً طعم الحب الذي عرفاه هذه الليلة . ولم يكن أحدهما يعلم بأن هذا هو أول وآخر لقاء لهما . فقد سمعت نجيبة عبارة واحدة نطق بها الشيخ أحمد حينما قال .. خمسة عشر عاماً مضت على تلك الفضيحة

في القرية ، عندئذ قررت نجيبة أن تكتفي بالآمال العذاب والأخيلة اللذيذة . . ولأن رائحة الفضيحة سوف تزكم الأنوف .

كان الشيخ أحمد ينظف في بندقيته العتيقة منذ أكثر من ساعة ، فيغسل أجزاءها بالنفط ، ويمسحها بقطعة قماش ناعمة حتى يجد اللمعان بعد ازالة الصدء . كان مشغولا في تفكيك الاجزاء وتركيبها وهو يتمتم مع نفسه . . لقد خطفها الوغد بعد أن خدعها بآمال جميلة تغري النساء . . أبتاع لك كذا من الملابس . وكذا من الاحذية . . ايه . . كل هذه الوعود الخداعة هي ما تحدى بها ابن الراعي تقاليد القرية العشائرية . وربما قال لها بأنه سوف يأخذها الى المدينة . أجل انه متأكد بأن أضواء المدينة هتي ما تبهر النساء في القرية . ولا شك أن ذلك الاحمق قد سلك في غوايتها هذا الطريق . وأمسك الشيخ ببندقيته وأحكم فيها قبضته . . وأخذ يحدث نفسه في حزن عميق . لقد كان يحبها حباً شديداً . ولكنه سوف يقتلها ولا يبكيها أبداً . . ! أجل وعندما توصل الى هذا القرار . خرج من الباب لعله يجد أبنه فيخبره بذلك . ثم وقف عند الباب وقال بفرح هستيري :

ـــ أين أنت يا ولدي . . أقول لك بأنني سوف أتحين الفرصة لعمل شيء . أما أكرم الذي ما زال ينظر الى بعض القرويين الذين يرمقونه بنظرات ساهمة ، كان يفكر في كيفية الحصول على ما يسد رمقهما حتى يجد لنفسه عملاً في يوم غد . وبعد أن وقف شارد الذهن بعض الدقائق ، عاد فدخل الغرفة التي كانت نجيبة جالسة فيها . ووقف يتأملها انها هي بلحمها ودمها .. نجيبة التي حلم بها طويلاً انها ملكه الآن . وهو يشعر الآن بأشواقه تفور فيمسك بيدها الساخنة ويضغط عليها ، ثم يلصق وجهه بوجهها وكأنه يريد أن يهب هذه اللحظات كل ما في قلبه من حب وحنان . ثم قال متلعثما :

ـــ كيف تنامين . . ماذا تتوقعين من الاحلام ؟

ـــ . . .

ـــ سوف لا تشعرين بالوحدة عندما يكون لنا أطفـــال . عندئذ نهضت نجيبة شاحبة الوجه وقالت باضطراب .

ـــ دعنا من هذه الاحاديث الآن . . . فتح أكرم عينيه في دهشة وقال

ـــ انك تشعرين بالضيق والخوف . . ! كادت نجيبة تبكي من العبرة التي تكاد تخنقه فقالت

ـــ كيف دبرت هروبنا . كيف ؟ وبعد صمت قصير قال أكرم بصوب خافت كالهمس .

ـــ هل أنت نادمة ياعزيزتي ؟ فابتسمت بانفعال وهي تمسح دمـــوع عينيها . كان أكرم مسروراً اذ يقف بجانبها وهو يشعر بأنه سوف يدافع عنها حتى الرمق الاخير . ثم التفت اليها ، ونظـــر في عينيها وشعرها وقدها الممشوق الطويل وشعر برغبة في تقبيلها ، ولكن الظلام الذي أخذ يلف المكان حول تفكيره الى شرود وحيرة . فقال لها .

ـــ لقد هـدأ الجو قليلا . لعلك تتمكنين النوم على معطفي الذي بسطتـه هناك .

ـــ لا أستطيع . أشعر بأنني مريض في هذه اللحظة .

ـــ ما بك ؟

ـــ لا أدري اني أكاد أختنق .

ـــ ولكن وجهك يبدو في غاية الجمال .

ـــ لعل هذا من تأثير الحمى . فاندهش أكرم وتملكه خوف غريب ولاذ بالصمت . وانتفض الشيخ أحمد من ذهوله . لقد اخترق الطريق من وسط القرية

دون أن يجد غرابة في نظرات القرويين . كان يتوقع ان يحس بهمهماتهم تسري هنا وهناك . وأن تتعالى ضحكاتهم الساخرة عندما تقع ابصارهم عليه . كلا . . كل شيء طبيعي وكأن تكون قصة حب العاشقين طبيعية جداً . ولا شيء ينذر بوقوع كارثة . وأخذ يتساءل مع نفسه . ماذا حدث ؟ هل تبدلت طبائع هؤلاء الناس بعد خمسة عشر عاماً ؟ لقد اشرف على التل البعيد عن القريـــة . . . يقتلها لماذا ؟ انهم لا يكترثون به ان فعل ذلك او لا . لم يجد ما ينم عن رغبتهم في الانتقام من خلال نظراتهم البريئة . واخذ يسترجع في ذهنه شكلها الجميل . وجهها وشعرها وعيناها . لكم كان يحب تلك الضفائر المعقوصة من شعرها . . . لكم كانت تعاتبه على ان تشتري لها المشط الخشبي . ولكنه لم يكن يجـــد المال الكافي للذهاب الى المدينة لجلبه . وكانت الايام تمر والاشهر بعدها . ولم يتمكن من اسعادها قط . ولكن بماذا يسعدها ؟ لقد مكث قرابة اربعين عاماً وهو ينتظر يوماً يملك فيـــه قطعة أرض وبعض المواشي ويتخلص من حياة القلق والخوف . وتلك المسكينة زوجته الاولى ماتت وهي تلفض الحسرات لأنها لم تنعم ولو بهنيهة حلوة من حياتها . ونجيبة هي التعسة الاخرى . لقد صبرت معه كثيراً . واخيراً ها هي تعيش اللحظات القلقة وتصوراتها تنتظر شيئاً ينقض عليها ليقتلها . كل ذلك حدث بسببه . اذاً فهو سبب البلاء . هو الضعيف الذي تكاسل طوال عمره الفاني ، ولم يعمل ما كان يضع حداً لبؤسه وشقاء زوجته . ومع هذه الافكار وقف الشيخ يتأمل من فوق الراية الارض الواسعة الممتدة امام بصره . ثم حمل بندقيته على كتفه ونزل التل باسماً وهو يحدث نفسه قائلاً . . . سوف اجد لي عملاً في اقرب قريـــة حيث لا لا اسمع كلمة (الجبان) التي تدفع المرء الى قتل اي انسان . ورمى بالطلقات بعيداً وهو يقول : لااجد نفسي مضطراً الى قتلها . ابداً ابداً . ولتذهب اين تشاء مادامت لا ترضى بالعيش بقربي .

الخـــادم الصغير

« شياطين صغار هـذا اليوم ،
عندما يتكلمون عن الزواج »

نظر الصبي الى باب الدار . ووقف يوجه بشوش ، وقال لأمه مسروراً :

ـــ هذا هو البيت الذي قلت لك انني سأعمل فيه خادماً . وطرقت الأم الباب دون أن تجيب بشيء . وفتحت الباب امرأة شابة وقالت :

ـــ أهذه هي أمك يا حازم؟ فقالت الأم وهي تدخل بوجه حزين .

ـــ لقد عاد اليوم فرحاً . انه يعمل حمالاً في السوق . رأيت أنه من الافضل أن يعمل خادماً . ولما قلت له هذا رمى بسلته والحبل وقال : ليذهبا الى الجحيم . وأردفت تقول بتملق .

ـــ اسم الخانم بالخير ؟

ـــ سميرة

ـــ كم تدفعون سميرة خانم ؟

ـــ نصف دينار . وسكتت الأم . كانت تخشى أن تقول شيئاً فلا يرضيها وأردفت سميرة قائلة :

ـــ يضاف الى هذا المبلغ الاكل والملبس وغيره . واذا كان هذا ... لايعجبك فردت الأم بسرعة وكأنها تخشى ان تفلت الفرصة منها :

ـــ انني قبلت . انني اترك ابني هنا لأني اظن بأنكم عائلة طيبة ـ وقفز حازم من مكانه وأخذ يلعب مع الاطفال . وأشرق وجهه عندما اخذ يحدث نفسه . . . لقد تخلصت من الحمالة . ليبقى سامي واحمد وسعيد في صخب السوق وضحك جذلاً وهو يقول لنفسه : يطلق عليهم اسم (الحمال) . اما انا فقد اصبحت (كاسباً) انني لا أنتظر بعد ليأتيني شخص احمل له حوائجه . انني سعيد لأن نصف الدينار سيكون جاهزاً رأس الشهر . كان الوقت بعد الظهر عندما صاحت به سميرة :

ـــ حازم . تعال ليراك الافندي . وكان الافندي قد خرج بروبه يتأمل الصبي وكأنه يشتري سلعة ما . بينما قالت سميرة :

ـــ اليس هو اكبر من فريد ؟ ثم هو نشط وشجاع . وقال الافندي بعد ان زم شفتيه ازدراء وكأنه ينظر الى القاذورات :

ـــ ان ثيابه هذه يجب ان ترمى الى النار . فهي مليئة الآن بالقمل .

ـــ سأدبر الأمر الآن . والتفتت الى الصبي وقالت :

ـــ ادخل الى هذه الغرفة . وانزع هذه الثياب . كان الصبي فاغراً فاه مندهشاً . ولكن سميرة لم تمهله لأنه وسخ فراحت ترش عليه مادة قاتل الحشرات بينما كان الصبي يرتجف من شدة البرد . وابتسمت سميرة وقالت :

ـــ انك ولا شك كنت ترضى بلقمة العيش فقط . ولكنك سوف تجد فوائد كثيرة هنا .

وتذكر حازم انه سوف يقبض ورقة نصف الدينار . وسوف تكون امه مسرورة بهذا المبلغ . ان اباه غائب الآن في الشمال . انه يعمل الآن في قطع الأخشاب منذ اسبوع . وتذكر ان اباه قال لأمه مرة انه قد بكى يوماً بشدة عندما كان يقطع الاخشاب في الجبل . وكانت غفوة قصيرة قد اخذته

عندما ضربه الأفندي بقدمه قائلاً :

— انتام في النهار ايضاً ؟ من قال لك انك في وقت استراحة الآن ؟

ونهض المسكين وهو يجر قدميه .

لقدكانت غفوة لذيذة حرم منها . انه بدأ يكره هذا الانسان الذي لايسمعه بغير الأوامر ... اسرع ... انهض ... اركض ... اسكت . واحياناً أرقص . أما زلت حمالاً . انك في بيت آدمي . ويجب ان تكون آدمياً .

كانت مياه الازقة قد جمدت في صقيع . والهواء البارد يصفع وجهه . والطين يتطاير من قدميه ، عندما كان حازم يركض في السوق لجلب اللحم والسلق والبطاطة والخبز . ورن في أذنيه صوت الافندي . اركض مثل الفرس يا ملعون . وبدأ يركض ويركض مثل الفرس والبخار يتطاير من خيشومه . وعندما وقف في بداية شارع جديد ، اخذ يلهث من التعب وشعر بصدره يكاد يحترق . وكاد ان يبكي . انهم قالوا له سنشتري لك جورباً من الصوف يقي قدميك من البرد . وقالوا سنشتري لك سترة جديدة . انه يكره هذه الوعود الكاذبة . ومع هذا فهو لايملك الحرية ليقول شيئاً من ذلك . كذلك انتهى هـــذا العمل . وعندما مدت سميرة يدها له ببعض الطعام لم يسمعها وكان وجهه شاحباً حزيناً . ثم قال له الافندي :ـ

— اتبعني لتعرف مكان عملي . قد تحتاج سميرة الى شيء فترسلك اليّ . وراح يمشي بخيلاء ، ويتبعه حازم كالكلب . وعندما وصلا الى الدائرة التي يعمل فيها قال له الأفندي :ـ

— قل لابيك ، انني سأفكر في تعيينه فراشاً عندي . لذا عندما رجع حازم الى البيت كان فرحاً مسروراً . فقالت له سميره :ـ

— عفارم عليك . انني قلت لافنديك بان يجد لوالدك عملاً . فضحك الصبي مسروراً وقال :ـ

ـــ اما زينب . فانني اراها مجنونة .

ـــ من هي زينب ؟

ـــ امي . الا تعرفينها ؟ فضحكت سميرة وقالت مستغربة : ـ

ـــ لماذا تتحدث عن امك بهذه اللهجة ؟ فاحمر وجه الصبي وقال : ـ

ـــ خديجة . الفتاة التي كنت العب معها كل يوم . قلت مرة انها جميلة . وهي بنت عمي . ماذا بها ؟ زينب قتلتني ضرباً لانها ظنت باني ساتزوج خديجة عندما اكون رجلاً . فنهرته سميرة قائلة : ـ

ـــ اخرس يا ملعون . والله شياطين صغار اليوم . اترى كيف يتكلمون دون حياء ؟ انني ساطلب من امك بان تعطينا سعاد اختك الصغيرة ، لاننا لانريدك بعد . فاخذ الصبي يبكي دون انقطاع . بينما استمرت تقول : ـ

ـــ والله كنا لانرفع العين امام الكبار في صغرنا . واني لم انطق حتى بكلمة الزواج إلا قبل سنوات قليلة . اما انتم يا ملاعين . تفهمون منذ الآن اشياء كثيرة . فقال الصبي من خلال دموعه : ـ

ـــ زينب تقول لي كل هذا . زينب امي .

ـــ انتظر الى ان يأتي الافندي ، واحدثه عن ماقلته . ومر بعض الوقت ، وراح ينصت من وراء الباب ليسمع ماذا تقول سميرة للافندي . كانا يتحدثان عن الحرب . وكان المذياع يردد الحرب ، الحرب عشرات المرات . ولم يفهم حازم ماذا يعني كل هذا . فقال في نفسه . ماذا يهمني ، ماداما لايتحدثان عني . ولكنه سمع شيئاً استوقفه هذه المرة . لقد سمع الأفندي يقول : ـ

ـــ ان الحرب القادمة شيء آخر . لقد قرات اليوم عبارة مروعة . وهي ان التاريخ قد يقف بعد الحرب الجديدة الى الابد . فقالت سميرة وهي تنظر بهلع : ـ

ـــ انه لشيء محزن ان لا يجد العالم مكاناً يختبي فيه . وجر حازم قدميه الى فناء الدار حالما شعر بصوت اقدام تقترب . وخرجت سميرة لتقول له : ـ

ـــ اذهب الى سريرك . ولاتنسى ان تنهض مبكراً . وجلس صباح على فراشه في المكان المخصص لنومه . كان يشعر ببعض الافكار والوساوس . ثم انتابته بعض الآلام وفكر طويلاً .. امه . ابوه .. الافندي . رعشة البرد . الحرب . واخذ الصداع يأكل رأسه . ثم اخذته حمى شديدة . وقال لنفسه . اطفال الافندي ينامون قبل ساعتين . ولكن لماذا قالت الجارة اللعينة بعد ان اطلت من السطح .. ان هذا الصبي نظيف وصحي مثل أطفالنا وان سميرة أجابت في الحال : لعنة الله عليه . انك لا تعرفينه . انه يتكلم منذ الآن عن الزواج مثلما يتكلم الرجال . انني لو لم اقل له ان الخادم السابق كان أشطر منك لتأخر في عمل كل شيء . وأردفت تقول .. انني عندما أقول له هذا ينتفض في مكانه ويقول كالحيوان .. انه يشبه الحيوان يرفس ويقول سأقتل نفسي لمنافسة ذلك الملعون . فيركض الى عمله ويعود وانفاسه تتلاحق . ولكنه مع هذا يهلل فرحاً ويرقص أحياناً . انا نضحك كثيراً على هذا المجنون الصغير . انه ينام في غرفة صغيرة لوحده . بينما كان ينام مع والديه واخوته واخواته وعمه وزوجة عمه وكلهم في غرفة واحدة أو في كوخ صغير . وتنبه حازم الى نفسه من هذه الأفكار المختلطة . انه ما زال ممداً على فراشه والصداع يأكل رأسه . فتأوه والتحف جيداً ببطانيته وأطبق رأسه على الوسادة وشده شداً . كانت انفاسه الساخنة تلهب وجهه . انه لا يدري ان كان يهذي او يحدث نفسه أو يحلم حلماً مزعجاً . ان الحمى اللعينة اخذت تعصر مفاصله . واخذ البرد يسري في اوصاله فتصطك اسنانه بقوة . وتخللت افكاره صور كثيرة . انه ما زال يركض في السوق وفي الازقة . والامطار تبلله وانه ما زال يشعر برجفة البرد القارص فيعض شفتيه لأنه لا يجد أحداً

يأخذه الى الطبيب انه يحلم . وانه ما زال يحدث نفسه ولا يريد ان يبوح بمشاعره الى اي انسان لأنه لا يجد من يصغي اليه أو يجزع لمرضه كما يحدث لبقية الاطفال. ولهذا السبب لابد من ان تستمر الحمى او تذهب عنه شيئاً فشيئاً . الى ان تضرب اولى خيوط الشمس وجهه عند الفجر . فيفتح جفنيه ليرى النور يملأ هذا المكان الذي يكاد يقتله الصمت .

في التلفون

« الآن اشـــعر بنفسي منشرحة ،
واني اتنفس الآن شهيقاً عميقاً عذباً ...
لقـــد بدأت ارى طريقي الآن »

نفث بدخان سيجارته ، وظل على كرسيه يتأمله يتلاشى بعينين كليلتين . كان جالساً بالقرب من بدالة التلفون . فهو يعمل في هذا القسم منذ سنوات ... ثم التفت الي بقول ...

— وهكذا ، فالحياة متعبة مزعجة ، بنظري طبعاً ... ولا يخفى عليك نوع العمل في بدالة التلفون ... ثم منغصات بعض المتكلمين .. فقلت وانا المح ارتعاشة اصابعه الممسكة بالسيجارة . قلت له :

— حاول يا صديقي ان تجد لذة في عملك هذا . وتعتاد عليه . فقال وهو يبتسم ابتسامة ماكرة .

— قد تجدي المحاولة الى حد ما . ولكن رأسي ... بصراحه ... لا اجد لحظة واحدة دون أن افكر . قلت له وانا اضحك .

— ومن يجد رأسه خالياً من التفكير ولو للحظة واحدة . قال :

— انا لا اكتمك بان مثل هـذا العمل (وضحك عندما قال) وبالنسبة لشاب مراهق مثلي ، فيه ما يغبط ويبهج ايضاً ... اقصد سماع اصوات البلابل . قلت وانا مستغرب .

— وكيف ذلك ؟! وقال :

— تعال لتستمع معي . وتصغي الى هذه المكالمات . قلت مندهشاً .

— كلا . ليس لي الحق في ذلك .

— تعال . فهنالك بعض المكالمات التي لا تدعك تلفت منها . ان قصص الغرام الغريبة تلصق اذنيك طويلاً الى السماعة . ولكن مع ذلك فان اعصابي لا يمكن ان ترتاح أو يستقر بالي فيما بعد . وبالاخص عندما الوذ الى الفراش ، اجد هذه القصص المحيرة تنتظرني، لتطرد من جفوني الكرى وتقض ومضجعي . وسحق لفافة التبغ في النفاضة ، واعتدل في جلسته ، وبدا وكأنه سيقول شيئاً خطيراً . وابتسم معتدا بنفسه وقال :

— لو اسرد لك بعضاً منها لاخذك العجب والاندهاش . . . انا مستغرب كيف يعيش هؤلاء الشباب وهم يتحدثون بهذا الشكل . واردف يقول وكأنه يدافع عن شبابه المظلوم . . .

— وكثيراً ما سئلت نفسي لماذا اصبحت في مثل هذه الحال القلقة ؟! وضحك وهـــو يقول بارتباك .

— لماذا اركض هنا . . . واجري هناك ؟ الا تصدق ؟ . . والله . . اني اعترف لك الآن بكل صراحة . . . اقول لاشك بان مثل هذا المحيط هو السبب في كل ما يحدث لي ولامثالي من الشباب . محيط الفتيات المراهقات اللائي يثرن الشباب ، ويحملنهم الى الجري ورائهن . . . قلت وانا عصبي .

— لا تدافع رجاء عن خرق الآداب الاجتماعية والتهور بهذا الشكل . قال وهو يبدو جدياً اكثر .

— انك تريد ان تدفع بالشباب الى الجنون . دعني اكمل لك الحديث . قلت له وانا مستغرب . . .

— كيف تقول هذا ؟ . . وبعد صمت قصير قال . . .

— كنت افكر الآن بعمق ... لا اريد ان اقول لك الآن . اذا كان الشباب يخرجون الى الشارع ، ويرون الظهور العارية ، والنهود النافرة تصعد فوق شق الثوب عند الصدر . ثم يرون نظرات ذات مغزى تميل وترتبط بعينيك وكانها تقول لك ... تعال هنا ... صداقة غرام . لا اريد ان اقول .. ماذا يمنع الشباب في حومة العطش والنزق ان ينجرفوا مع مثل هذا التيار الصاخب اللذيذ ... انك تريد ان تقول لي ... اليس للشباب ذنب ؟ . اعرف هذا ... ولكن اقصد ان اقول من من هؤلاء الناس يحب بصدق واخلاص وهو يظن انه ذاق طعم الحب ؟ قل لي من ؟ كنت ما ازال اسمع ما يقول وانا مصغي له عندما شجعتني الفرصة ان اسأله قائلا ...

— وانت . ماذا عن نفسك ؟ قال وهو يبلع ريقه مبتسماً ...

— اما بالنسبة لي .. يضاف الى معرفتي كل هذا . احاديث العشاق وقصص الغرام التي اسمعها يومياً مئات المرات . لقد امتلأ رأسي بما يتسرب له عبر اسلاك التلفون ، فتخلق لدي انفعالاً وتفكيراً وحيرة ، ثم فضولاً يدفعني الى تعقيب ما سيحدث فيما بعد ... وهـــذا عمل لا احمد نفسي على عقباه دون ان يكون لي فكاك منه . وسكت قليلاً وكأنه يريد ان يمسك بعنان اسانه عن قول اشياء كانت ستفلت منه لا ارادياً . ثم نظر الي يتفحص سيماء وجهي . واذ وجدني ابتسم له ، شعر بارتياح ، وانا ما ازال انتظر منه المزيد في معرفة ما يقصده من قلق باله . فيكرر الكثير عما ينغص عليه الحياة . وبدا انه اطمأن الي عندما قـــال ... ضاحكاً في سخرية ...

— ان امي تلح علي في امر الزواج .. ولكن سوف اروي لك الآن قصة عجيبة ... مغامرة او قصه غرام .. سمها كما تشاء . في الواقع كانت مخاطرة قمت بها يوم أمس ... وانا مرتاح الآن لأني انتصرت في النتيجة ... لقد اقمت نفسي

طرفاً ثالثاً مع طرفي قصة غرام ... لقد اكتشفت زيف هذه المسائل .. كيف ؟ اقول لك الآن .. وانا احمد حظي العاثر الذي لم يقدني هذه المرة الى الهاوية المحققة . فمنذ اربع سنوات ، وانا مشدود الى سماعة الغرام . قصص الحب التي اسمع فصولها دون ان أرى منها شيئاً ، حتى اصبحت خبيراً في اصوات الجنس الناعم الرقيقة ، ومدلول غنجهن ودلالهن . ومواعيد اللقاءات والهمسات عبر الاسلاك ... وانا حيال كل هذا كابت لمشاعري . أحبس عواطفي خلال تأدية واجبي بكل أمانة . وضحك صاحبي عندما قال ...

— لست كاتباً كي اسجل مثل هذه القصص ... وبصراحة ... ان عملي هذا يؤثر كثيراً في بلبلة فكر الانسان . ولا تسأل عن الارق ليلاً ... لقد تساءلت كثيراً مع نفسي .. اقول .. هؤلاء الشباب الذين يتحدثون كثيراً عن هذه المسائل .. يبدو كل منهم مسروراً الى غاية السرور .. وانا مستغرب لا اعرف لماذا . لأن كل منهم يتحدث عن ثلاث او اربع فتيات في آن واحد ... انا اسمع كلامهم بدهشة وتظن بان هنالك كثيرات أو كثيرون . أو قل يندر ان تجد من لا يحب أو يبحث عن الحب على اقل احتمال . وعندما تسمع النتيجة التي تنتهي بالوداع .. وتليه الدموع .. تسأل نفسك .. اين ذهبت تلك التأوهات والهمسات .. لقد قال يملأ مسمعها ... افرضي ان لا شيء حدث بيننا . قال هذا دون خجل أو حياء .. لم يبد اية رجفه في صوته ولهجته ... كيف يحدث هذا ؟ وضحك صاحبي ساخراً وهو خجل وقال ...

— يخيل لي بأني اراهم وجهاً لوجه عندما يتكلمون بهذا الشكل . ورمى نفسه على الكرسي وهو ممسك بالسماعة طوال ساعات . لا يكاد يضعها برهة الا ويرفعها ثانية .. الرقم الفلاني هو نفسه يكلم الاخرى .. قلنا يا سيد ليس هنالك جواب .. اذن الرقم الفلاني .. واذاً لا جواب ايضاً اعطيك الرقم الآخر ..

والتفت الي صاحبي وهو محمر الوجه حانقاً عصبياً وقال وهو يبسط يده شارحاً . .

ـــ الكل عنده سواسية . . لعنة الله على مثل هذا المستهتر . . رفقاً ايها الناس . . انا لا استطيع العمل في هذه البدالة . . وفي هذه الأثناء كان احدهم قد استدار برأسه نحوه يتحدث معه بصوت عال بين ضوضاء موظفي البدالة . كان هو الآخر ، قد شد سماعتي التلفون في اذنيه . وهو يبتسم قائلاً . .

ـــ مرة اخرى اصبحت عصبياً . . لماذا لم تمرن نفسك على سماع هذه السخافات وتكون مثلنا . لماذا ؟

ـــ لا استطيع . . لا استطيع . . فقال هذا ضاحكا

ـــ انا على عكس ما تقول . يأخذني الضجر والجزع عندما ينقطع الحديث . الا يعجبك الضحك على المتكلم الذي تسمعه يشيع النهاية بالحسرات وكأنه يودع قطعاً من من آماله . . وتسمع الوداع . ثم لا يمضي الا ثوان معـــدودة وتسمع الجرس يدق . وتسمع صاحبنا المتكلم يراوغ بكلمات معسولة لأنه لم يطق الصبر . انك لا تجد الحب قد توثقت صلاته متيناً بين الجانبين ابداً . الى هذا الحد ، كنت صابراً اصغي الى الحديث الذي تشعب هنا وهناك . وهنا وجدت ان علي ان اذكره بالقصة فقلت :

ـــ لعلك نسيت القصة التي اردت ان تسردها لي . قال مزهواً :

ـــ كلا . كلا . . . انني فقط اردت ان ابين لك شيئاً عن الحب الحقيقي الذي لا وجود له . . . فالشباب اليوم يبحث عن الحب الرخيص . . والشابات حائرات بين حقيقة وزيف هذا الواقع الذي يعشنه . لقد سمعت التهديد بالانتحار في التلفون مئات المرات . . . وسمعت الحسرات الملتهبة تتوسل بالطرف الآخر الذي لا يحرك ساكناً . الآن سأروي لك القصة . سميرة الفتاة التي اسمع صوتها هذه الايام ، وكأنها تذوب مع الحب بمرور الأيام . تبدو وكأنها تبحث عن

شيء ولا تجده . تريد أن تفوز بموعد ، ولا تنفك تتحدث عن اللذة التي تجدها في عذاب حبها وآلامه . وهذا مندور فتى احلامها المترف يروح ويجيء بسيارته في الشارع عشرات المرات . وبالرغم من الغنى الذي ينعم فيه تراه شاحباً كئيباً وكأنه قطع جميع آماله في الحياة . ان صوته يطرق سمعي كل يوم مرات كثيرة . يتحدث عن شيء واحد دائماً . وهو الغرام الذي بقي يعيشه بخياله وافكاره وكأنه لا شيء هنالك في الدنيا غير عالمه الصغير . لقد سمعته بالأمس يتكلم عن نفسه مع سميرة قائلاً

— دعيني وشأني . انا متعب من الحياة .

— ولكنك كنت تعلق املاً كبيراً علي . . . لقد وعدتني بالزواج .

— انا مريض الآن . وارغب في السفر بعيداً . . بعيداً .

— ولكنك كنت تطمع في بسمة مني . . وتقول ان نظرة واحدة من عيني تشع في كيانك حرارة الحياه من جديد . وكنت تقول بانك تعيش في عالم رائع جميل بسببي . . لماذا يحدث لنا هذا الآن ؟ هل وجدت واحدة اخرى تحل مكاني ؟ لماذا انتم بمثل هذه القساوة تريدون كل شيء دون مقابل . . اني . .

— لا استطيع ان اسمعك بعد . . سكت الصوت قليلاً ، قالت سميرة بعده في هدوء

— كفى . . لا فائدة . . هل تريد ان تقول كلمة الوداع . . اقول لك شيئاً واحداً . . ان عودك سوف يذوي . . ورأسك سوف يشتعل شيباً ، وتتململ على المقعد وانت تستعيد ذكريات ايامنا هذه حيث لا يفيد الندم . . . وهنا انطلق صوت مندور في ضحكة عالية وهو يقول . . .

— اجل سوف اذكر ايام الشباب بين بسمة شاحبة صفراء ، وبين أهة

وحسرة .

— سوف انتظرك في الحديقة . . .

وفي هذه الاثناء سمعت قرقعة قوية تقفل الخط ، ولم اعرف ايهما كان هو الذي القى بالسماعة في مكانها على الجهاز . ولفني صمت طويل ، بدأت استعيد ما سمعته ، قلت لنفسي ينبغي ان لا ادخل في هذه الحومة الرذيلة . كنت حائراً . . لماذا لم أجد واحداً منهم يفكر في الزواج وهو يفكر في الحب . ولهذا السبب لم يتغير جوابي لأمي فيما بعد . . انني لا اتزوج طوال حياتي . ان هذا في رأيك طبعاً شيء شاذ .. ولكنني قررت ان اكون قاسياً مع نفسي الى هذا الحد حتى اتأكد من وجود الحب . الى ان كان يوم امس ، وبعد سماعي تلك المكالمة . واذا اجد نفسي فجأة انقلب الى شيء آخر . وفي اعماقي يتحرك شيء اشبه بحيوان ملحاح . وابدأ انساق مع الافكار الشيطانية واتحدث مع نفسي . . سوف تنتظره في الحديقة . . لماذا لا أذهب واكلمها . . سوف اتخلص من حيرتي التي يعج بها رأسي . اجل اني اعرف كيف استعمل المنطق في اسلوب صحيح . لقد نسيت نسيت اللحظة التي كنت افكر فيها بالنظرة الجدية في الزواج ، ونسيت الحذر من شطط الشباب الذي كان يصور الحب لي مثل الغول . وبقيت هكذا وقتاً طويلاً وانا اشعر بثقل الزمن ، اريد ان اسرع الى لقياها في الحديقة تهرباً من الانفعالات التي باتت تعصر ذهني عصراً . ولأول مرة منذ ان عملت في بدالة التلفون ، شعرت بخفة وطأة وطأة الخلجات التي كانت تجثم على صدري . وبدأت انفض عني ثوب الكآبة والأضطراب . ولم يخطر ببالي ابداً ان هذا سيؤثر في خلق مشكلة معقدة تربك مجرى حياتي فيما بعد . وعندما جاء المساء ، خرجت من غرفة البدالة ، وانا مشدود الى الحديث التلفوني الذي سمعته في الصباح . كنت مذهولاً عندما نبهني زميل الى الارقام المتساقطة امامي . فسارعت انتشل

اضطرابي واتجالد واجيب المكالمات واحدة بعد الاخرى . لقد كانت اذني مشدودة الى الصوت الناعم . وتذكرت نفس هذا الصوت عندما كان يطرق سمعي قائلة . .

— قلت لي يا مندور اكثر من مائة مرة . . نفس القول . . انت كذاب الا تمعن في ايذائي وعذابي . قل بصراحة . كان مندور يضحك وهو يقول :

— كلا . كلا . انت واهمة . . افهميني ياسميرة . . كنت مشغولاً . . هل اراك اليوم .

— ليس اليوم .

— اذاً انت كذابة .

— كلا . سوف اراك غداً . . وبدا مندور مهموماً في لهجته . ولكنه ضحك قائلاً . .

— الا ترينه كثيراً . اربع وعشرين ساعة . . وانا مريض لا اضمن لنفسي الحياة الى الغد .

— أوه . انك تقول دائماً . . مريض . . مريض .

— وأنا اقول لك بأنك لا تفهميني ابداً . . وسكتت سميرة وكأنها انقطعت لبكائها . وسقط صوت ثقيل مع انقطاع الخط . وبالأمس كانت سميرة متغيرة تماماً . لقد بدت وكأنها فقدت كبرياءها تماماً عندما ختمت كلامها قائلة سأنتظرك في الحديقه . وبقيت اعاني من ثقل الصمت الكئيب مبهوتاً حائراً والذي انتشت نفسي فيما بعده ، وامتلأ رأسي بالخيالات اللذيذة . قلت لنفسي يغدر بها . . يعذبها . . وهي تتشبث به بهذا الشكل . . كل هذا سوف ابحثه معها في الحديقة مساء . سوف اقول لها لماذا تتشبث بالسراب بهذا الشكل . .

هل هذا ما يسمونه بالحب . . أين مكان مثل هذا الشعور الحقيقي في قصتهما . اني لا أشعر بوجوده مع العذاب الذي يعصرها . ومضى الوقت سريعاً واذا بي وجهاً لوجه معها في الحديقة . لقد حييتها بكل أدب ولباقة ثم ترددت قليلاً ، ولكني بدأت الحديث هكذا .

ـــ لقد سمعت حديثكما . . فأنا أعمل في البدالة . .

ـــ لماذا قمت بهذا العمل . ؟

ـــ لأني علمت بأن هذا الانسان ليس له ضمير . . انه يخدعك . .

ـــ وأنت . ماذا تريد . . ألست مثله . . وقفت أفكر بذهول .

ثم قلت . .

ـــ في الواقع اني لا أثق بصدق هذه المسائل . . اعتبرها كلها خداعاً في خداع . لذلك جئت احذرك .. وجلسنا على أحد الكراسي نغرق في صمت غريب . يسيطر علينا شعور التردد والارتباك .

ثم تحدثنا عن الآمال التي يصبو اليها الانسان . والحب الذي هو أقوى من الموت . والسعادة والشقاء . لقد كنت مسروراً ومنشرح الصدر . تلك كانت اللحظات الأولى من نوعها في حياتي . وتلك أول مرة أكلم فيها فتاة بمفردها . ولكني كنت مبلبل الفكر شارد الذهن . كنت أتساءل مع نفسي ما هي آمالها ياترى ؟ وكان قلبي ينبئني بشيء ثقيل الظل . . وفي غمرة هذه الانفعالات اقترحت عليها الذهاب الى البيت الذي اسكن فيه . وقد فوجئت بموافقتها على الفور . . ووصلنا الى البيت الذي كان خالياً من كل أحد . وعندما جلسنا على الارض المفروشة . شعرت بكآبة وبعض الحزن . كنت افكر مع نفسي . . هذه الفتاة الجالسة بالقرب مني تبدو وكأنني اعرفها منذ سنوات . انها مثل حمل وديع ينتظر

المصير المحتوم. وجالت في رأسي أفكار شيطانية وأنا أنظر الى وجهها الجميل وهي تنظر الي في خفر وحياء. ثم قلت لها وأنا أبتسم..

— هل تعرفين كيف افكر ؟

— كيف ؟

— من خلال الكلام العجيب الذي اسمعه في التلفون..

وهنا تذكرت نفسي وأنا أثور ولا أطيق الصبر على ذلك الزيف والخداع. ووجدتني حانقاً على نفسي عندما ضربت بقبضة يدي الباب وأنا اقول مع نفسي.. هل أصبح مثلهم..؟!.. وفي الدقائق التالية. كنت متمالكاً أعصابي أعرف ما يتوجب علي أن أفعله.

وأشعل صاحبي سيجارة اخرى، ووضع ساقاً على ساق، وبدأ ينفث الدخان في الهواء وهو يراقب الحلقات المتصاعدة. ثم التفت الي وهو يضغط على الكلمات التي يريد ان يؤكد عليها. قال.

— ألا تصدق.. هذا ما حدث بالضبط.. كنت انظر اليها وهي قابعة في صمت وكآبة.. لماذا جئت بها الى هذا المكان.. ولكن سؤالاً واحداً هو ما وضع لي النهاية معها عندما سألت نفسي.. هل أنا راغب في الزواج منها ؟

قلت على الفور. كلا. لأنني لا أعرفها بتاتاً.. وفي فورة من العصبية صحت بها قائلاً..

— من الذى أتاح لك مثل هذه الظروف.. ومن الذي سيتزوج منك وأنت على هذه الحال. من ؟ هل أنت الانسانة التي لك شعور وأمنيات وآمال ؟ كنت شديد الاضطراب، والغضب يأكل أعصابي وقلبي يخفق بشدة. لقد احتقرت نفسي على المغامرة التي رسمت لها الخطة لأني اصبحت كثير المقت لاقتناء صورة مزيفة. وفي هذه الأثناء جاءني صوتها الرقيق الحنون وهي تقول..

ـــ لماذا لا تجيب . لقد سألتك اليس من حل . . ؟ كنت انظر الى عينيها المتقدتين كالنار . ورأيت فيهما شبح الماضي . . . مندور . . . وأنا . . . وغيري . . لا فرق بين هذا أوذاك . قلت

ـــ كنت أقاسي من الحيرة والعزلـــة . . ولكني فهمت كل شيء الان . أنا لا اصبح كالآخرين . . . في الظلام . . ولا أريد أن أطمر القلوب الطـــاهرة تحت التراب . . كنت ألاحظ على وجهها الارتباك من خلال اصغائها لكلامي وقد سمعتها تقول . .

ـــ أنت على حق . . ولكن اليس من حل ؟ قالت هذه الكلمات وكأنها تتوسل قلت

ـــ ليست لي علاقة بالموضوع الى هذا الحد .

ـــ ولكن منذ هـذه اللحظات فقد بدأت أحبك . أو احترام شخصيتك .

ـــ تمالكي أعصابك . فليس هذا ما أود أن تقوليه لي . اقول لك بصراحة انت وسواك لا تعرفين الحب . . وفي غمرة من تيار العصبية والحنق صحت في وجهها وأنا أطردها . . قائلاً . أخرجي من هذا المكان . اغربي عن وجهي . . لا أريد أن اراك وأمثالك بعد الآن . . وسكت صاحبي قليلاً . ثم استأنف كلامـــه قائلاً في هدوء كالهمس . . لقد طردتها وانا ارى الدموع تتساقط من عينيهـا بغزارة . حيث لملمت عباءتها واسرعت بخطاها خارجاً وكأنها تحمل معها اكواماً ثقيلة من بقايا فتاة تحطمت تحت ثقل الحياء والخجل .

والتفت الي وكأنه يختتم كلامه قائلاً :

ـــ ومنذ الأمس يـا صديقي . . وأنا لا اعرف طعماً للراحة والهدوء ، وأنا لا أزال حتى هذه اللحظة افكر في مصير هذه الفتاة البائسة المسكينة . ولكن

عقلي قد أسعفني اخيراً . . فقد قررت الزواج منها . . قلت مندهشاً .

— هل انت جاد في كلامك ؟ . وابتسم صاحبي وهو يقول في جد . .

— سوف اتصل بها في التلفون الآن . . وبدأ يتكلم وانا اسمعه يقول .

— عرفت من أنا . متى سأراك ؟ عندي اخبار مهمة لك يا سميرة . . لقد ذهب مندور . سافر بعيداً . بعيداً . كان هو الخيال . . اجل انا الذي سوف اكون الحقيقة . سأراك اليوم . اجل . ثم التفت صاحبي الي وقال بصوت تختلط فيه العبرة الحزينة بالسرور . انها تبكى من شدة الفرح . . عندئذ اندفعت اقول له .

— اطمن بالها اكثر . وهدأ من دهشتها . لقد كانت ابتسامة عريضة على ثغره عندما قال :

— الآن اشعر بنفسي مفتوحة منشرحة . . اني اتنفس الآن شهيقاً عميقاً عذباً . لقد بدأت أرى طريقي الآن . . .

زواج عطا

« ... آني هم چنت أفكر فرد يوم
بهالشكل ... هي وين
ماتصير خلي تصير »

غمرت ارجاء الشارع اصوات السيارات التي انطلقت مسرعة تثير الغبار ، وانتشرت اصوات النسوة يهللن ويزغردن . كان الاشخاص الذين يقبعون داخل هذه السيارات ، يصفقون ويتصنعون الفرح ، فيعلو الانفعال وجوههم . والابتسامات المرسومة على شفاههم لاتتعدى هذه الثغور. ان الخلجات التي تنتاب هذه النفوس هي.. زواج عطا الفراش . هذا الانسان المسكين الذي عمل اربعين عاماً وهو يحلم بيوم زواجه . واخيراً ها هو ذا يشرف على هذه اللحظات .

كانت الشمس تميل نحو المغيب ، وتسحب معها الدفء الذي كان يغمر الارض قبل قليل ، عندما جلس عطا مع بعض اصدقائه في المقهى . وهم ينتظرون ساعة الزفة . كانت افكار كثيرة تغمر رأسه ، فتدور عيناه هنا وهناك ، ويضحك بوجهك وهو مشغول عنك بالهواجس التي تنتابه . وكأنه لايرى ما تقع عليه نظراته . لقد تأنق اليوم ، فلبس احسن ما لديه من الملابس . وهو يلتفت الى نفسه بين حين وآخر ، يحاول ان لايبدو في هذا العمر الذي هو فيـــه . لقد غطى رأسه الاشيب ايضاً بالشماغ . وظل يكلف نفسه ان تكون حركاته سريعة كالشباب . حتى لكأنك تخاله وقد تبدل في هذا اليوم ، فلا تراه كما كنت تراه من قبل . لقد عاش سنوات

طوالا ، وحيداً في غرفة واحدة ، يجهد ويعمل من اجل جمع بعض النقود ، يفكر بانه سوف يؤثث بيتاً ، وسوف يتزوج ... وعندما كان الاصدقاء يلتقون به يبادرونه بالسؤال ... لقد فاتك القطار يا عطا . متى تتزوج ؟ ... وهكذا فان ماضيه كان تعساً كثير المصاعب . لقد عمل صانعاً في هذه المقهى بالذات . حتى هذه المقهى اصبحت تشغل مكاناً اكبر من ذي قبل. وان الكراسي الموجودة الآن ليست هي الخشبية القديمة . كل شيء اصبح اليوم من النايلون حتى الكراسي ... وتنفس عطا عميقاً ... وبدأ يشعر بنشوة تدب في كيانه . ومرت النسائم الرقيقة الباردة قليلاً ، ومسحت على شعور الجالسين في المقهى . وتحرك قليل من الغبار مع النثرات على الارض التي رشت بالماء منذ قليل . ولمعت اشعة الشمس الغاربة على اوراق اشجار البرتقال . بينما كان عطا يغرق في افكار الماضي السحيق . لقد كان في يوم ما ، هنا في هذا المكان ، يجمع الاستكانات الفارغة ، ثم يوزع مجموعة اخرى من اقداح الشاي . ثم يجلس في ركن قصي يرقب بنظراته الاشخاص الذين يجيئون ويذهبون . والاماكن التي تشغر بعد ان يغادر الجالسون ... ويتساءل مع نفسه ... هل هؤلاء الناس لهم زوجات ؟ وبيوت ؟ واذا كان لهم زوجات ماذا يفعلن الآن . بينما هم يلعبون الدومنة ؟ وعض عطا على شفتيه قائلاً ... والله لو كنت متزوجاً الآن ... كنت اعرف كيف اعيش معها . واخذ عطا يجيل بصره على وجوه الناس . انها وجوه جديدة لايعرف عن اصحابها شيئاً ... أين حسين الذي كان هو الآخر يحدثه عن صعوبات زواجه ... وأين اسماعيل الذي كان على شجار دائم مع زوجته . فكان يترك البيت الى المقهى بعد كل خصام فيجلس حزيناً مهموماً ولايريد ان يكلم احداً . وكثيرون كان يراهم هنا مرة واحدة . ثم لايراهم الى الابد . والآن ثمة وجوه قديمة يذكرها منذ ان كان شاباً يعمل في هذا المكان . انهم يحيونه بحرارة على زواجه . قال له احدهم مبتسماً .

ـــ عطا ؟ راحت احلام الشباب . الآن تفكر بآمال المستقبل .

ـــ اي . تمام . تمام ... وسكت عطاء لانه راى على وجه صديقه علائم ذات مغزى وكأنه يقول له . ماذا بقي فيك غير الشيخوخة . وانتبه الى صوت آخر يقول :

ـــ عطا . تتذكر تلك الايام ؟ كنت وحيداً . راح تصيراً ثنين اليوم . تمام لو لا ؟

ـــ اي . تمام . تمام .

ـــ اخيراً شفتلك شريكة حياة . تساءل عطا مع نفسه ساخراً . هل صحيح اصبحت له زوجة تقاسمه الحياة ويقاسمها اياها ؟... هل هو صحيح الآن كباقي الناس المتزوجين . او انهم على حال آخر ؟... وثمة شخص واحد كان يتململ في مكانه كأنه شخص غريب . قال هو الآخر .

ـــ عطا ... ابوك باقي بالحياة مو ؟

ـــ آني ما شايف ابويه . وكان عمري ثماني سنوات عندما ماتت أمي .

ـــ هم زين ماتت أمي ذاك الوقت . لانها ما كانت تعرف كيف تجد لقمة العيش لي . اجل . انها كانت تثرثر مع نفسها من شدة وطأة الحياة . وكانت تكفر بالحياة ، وتلعن الدنيا باكملها ... قال عطا بصوت متعب :

ـــ كانت أمي تلعن الحياة التي قذفتها الى تلك الأيام الظالمة القاسية . كنت انصحها طبعاً ولكن دون جدوى . آني مثلاً كونت نفسي وشخصيتي بنفسي . لوكانت أمي موجودة الآن كنت اقول لها بان العمل لا يأتي بنفسه الى اقدام الانسان . قال شخص آخر .

ـــ طبعاً اذا الانسان ما يباوع زين ما ممكن يشوف فرص الحياة وما بيها . ثم اكو شي آخر . ليش الزواج هو كل شيء بالحياة . قال عطا متسائلاً باستغراب .

— شلون يعني ؟ قال آخر يا به من لاجارة . وإلا آني اخلي عندي مرة .

— لا . اكو أشياء اخرى . مثلاً اني افكر هسه شلون احصل على لقمة العيش . يوم احصل على خمس دراهم ويوم ما احصل على فلس . اسرع عطا يقول بسرور .

— آني هم چنت افكر فرد يوم بها لشكل . لويش آني بقيت اعزب مدة اربعين سنة ؟ ها دگولولي لويش . كنت خايف من الزواج ؟ لا . كنت ما اشتغل ؟ لا . كنت ضعيف بالحياة ؟ لا . لويش بقيت ها لشكل دگولولي ؟

اجل لقد كان عطا يعرف كيف يتغلب على الملمات . ويعرف كيف يجد فرص العمل . ولكن شبح الفقر كان يطارده في كل مكان . لقد عمل نجاراً وبناء . وعمل في هذه المقهى التي يجلس فيها الآن . سنوات طويلة مرت مسرعة وسحقت آماله وكأنه كان يركض وراء السراب . لقد كانوا يسألونه اول الامر . متى تتزوج يا عطاء ؟ . لقد تبدلت نظرتهم فيه الآن . انهم لا يلقون في روعة اليوم إلا كلام التحذير والتخوف . انهم يقولون له ... لا تفكر في الزواج . وكأنهم يقولون له لم يعد فيك كيان يصلح للزواج . لقد اصبحت ايها الرجل كمن يلفظ الانفاس الاخيرة بعد ركض مسافة طويلة ... لماذا . اليس من حقه ان يفكر . ان يفكر ؟ ولكنهم كثيرون هم من قالوا له ... لا تورط نفسك عطا . الزواج جحيم . انك ستندم فتساءل مع نفسه ... هل انهم يقصدون جحيم الزواج بالنسبة له ؟ ... ليكن ما يكون ... انه لايفهم شيئاً من القفص الذهبي الذي يتحدثون عنه . ليكن قفصاً من حديد أو من تنك . ليكن قفصاً فيه القضبان كجمرات من نار . لقد صمم ان يدخله . وان يكشف هذا السر . انه لا يبالي بكلام الناس . ثم مر الزمن طويلاً ثقيل الظل ، ولا يجد عطا شخصاً واحداً يقول له بأن الزواج أمر لا يخشى منه . لقد اخذ يسمع الهمسات في المقهى تشير له . . سوف يغرق عطا في المشاكل اذا ما

تزوج . ورجع عطا بفكره الى ماضيه ، الى أيام شبابه . . لقد مرت سراعاً . لذيذة قلقة يشوبها الأمل . لم يكن قد يئس منه . ولم يكن يشعر بقيمة الزمن الذي مضى بعمره كما يشعر به الآن . فكر طويلاً طويلاً حتى وجد نفسه في الاربعين ، وقد وخط الشيب رأسه ، وأخذت العروق تبدو بارزة في ظهر يديه . كما ظهرت الاخاديد على وجهه ، وبدأ يشعر بالتعب بعد كل عمل مهما كان بسيطاً . كانت تلك نقطة تحول في حياته . . شعر فيها بأن الفرصة قد ذهبت بعيداً عنه قبل ان يدرك البقية الباقية من حظه . لهذا السبب . أخذ عطا يخطب لنفسه فتاة لتكون زوجته . كان طلبه اول الامر فتاة جميلة . ثم فتاة مهما يكن جمالها ثم فتاة قبيحة . ثم امرأة أرملة واخيراً أخذ يبحث عمن ترضى به زوجاً وأطلق عطا حسرة من صدره وابتسم في وجوه أصدقائه الذين أحاطوا به في المقهى . وتتابعت صور الماضى أمام عينيه اللتين تعلقتا في المرايا المعلقة على جدران المقهى . وأخيراً ركز نظرته في رأسه الأشيب ووجهه المتغضن . وتلاحقت الصور سريعة قاتمة . كانت تنتزع نفسها من أعماق الماضي السحيق انتزاعاً . وأمتد خط طويل وراءه في صور يوازي خط عمره الضائع ، وتساءل والألم يعصر قلبه . لم ترض به أحداهن غير نعيمة . . طوال تلك المدة . أين كان ؟

لقد حاول مراراً أن يتغلب على الضعف الذي كان يشعر به . لقد اراد أن يكتشف حقيقة تلك المزاعم . تلك العقدة السوداء التي تقبع في اعماقه . لقدطلب من أم سنية أن تتزوجه ، فطلبت المبلغ الذي لا يملكه . ثمانون ديناراً . .

كانت امرأة ما تزال تحتفظ بجمالها بالرغم من كبر سنها . وكانت ربيعة مملوءة الجسم . ولكنها كانت خرساء غامضة الاشارات حينما يريد أن يتفاهم معها . وسعدية الفتاة العانس رفضت أن تتزوجه لأنه يكبرها بعشر سنوات . وتذكر عطا تلك الأمسية التي عاد فيها الى غرفته وحيداً مهموماً بعد أن يئس من

البحث عن زوجه . انه يرضى بأية امرأة ترضى به . وماذا فعل به هذا الزواج الملعون قبل أن يحل . لقد بهذل حاله . وهنا تذكر نعيمة ، التي تعرف عليها في غرفة قذرة في حارة موبوءة منذ من . وكان عطا قد اعتاد ان يزورها مع كثيرين يجيئون ويذهبون الى غرفتها كل يوم .. ماذا بها ؟ اليست هي امرأة ؟ انسانة مظلومة في الحياة . لا شك أنها تنتظر من ينتشلها من ذلك المكان القذر . ماذا بها انها جميلة . سوف ترضى به زوجاً ولا شك . ليذهب اليها . وهكذا انطلق عطا من غرفته مسروراً لايطيق قلبه فرحه الشديد . ها هو قد وصل . انه نفس البيت . ودفع بالباب ودخل . وفي هذه الأثناء خرجت نعيمة وهي تبتسم وتتمايل بجسدها كما اعتاد ان يستقبل الرجال .

كان عطا منفعلاً في غاية الشوق ، فركض وأمسك بيدها وهو يقول

— نعيمة جيتلج بقضية مهمة . مهمة هوايه . تعالي واگعدي يمي .

— شنو خير گول .

— نعيمه . تقبلين تتزوجيني ؟ اطلقت نعيمه ضحكة عالية اختلطت قهقهاتها مع صوت الراديو المنطلق من داخل الغرفة بآيات من القرآن الكريم . ثم قالت وهي تبتسم وتحاول ان تبرز جمالها ومفاتنها .

— شلك بالزواج . مو دتجي يمي كل يوم ؟

— لا . نعيمه . آني أريدج هالمره بغير شكل . اريدج الي وحدي . اريدج زوجه . آني تعبت من حياتي . وأنت همين تعبت من هالحياة اللي تعيشين بيها مو هيچي ؟

وفي هذه الأثناء . سمعا بعض الطرقات على الباب . فنهضت نعيمه وفتحت الباب . فدخلت امرأتان متلفعتين بالعباءة . كانت الاصباغ تغطي وجهيهما بشكل حولتهما الى شيء اشبه بالدمية التي لا روح فيها ولا حياة . فشعر عطا بالتقزز من

نفسه . ورغب في البصاق على الارض بشكل لم يملك مع نفسه ان يبلع ما بحلقه وهو ينظر الى هذه الوجوه الشاحبة المريضة ، وتذكر عطا الامهن واليأس المتجسد في بكائهن . لقد صرخت احداهن في وجهه مرة من المـــرات وهي تبكي . اني اكرهكم . ولهذا انتقم منكم . اعذبكم . تلك المرأة كانت تنظر الى عطا وكأنهـا تنظر الى وحش مفترس وانتبه عطا الى صوت نعيمة التي كانت هي الأخري شاردة الذهن فقالت .

ـــ تحملت في الحياة ما يهون امامه ثقل الجبال . سمع عطا كلامها هذا . فقفز قلبه من مكانه فرحاً ، لأنه وجد الفرصة المواتية ، فهتف قائلاً .

ـــ هل وافقت يانعيمة ؟ ارجوك بأن توافقي . وظل عطا يكرر قوله وهو ممسك بيدها متوسلاً ويكاد يبكي كالطفل . عندئذ ابتسمت نعيمة ، واغرورقت عيناها اشفاقاً عليه فهزت رأسها وهي تقول

ـــ نعم .

هكذا تزوج عطا من نعيمة . وها هو الآن جالس مع اصدقائه في المقهى ، الذين يتندرون معه بالنكات . عطا زوجتك يمكن حلوه . عطـــا مرتك وين انت تعرفت عليها بالله .. عطا تريد اولاد من زوجتك .. تمام لو لا ؟ .. عطا انت عايش بالميدان هوايه . . ؟

هذا ما كان في المقهى . اما نعيمه فقد كانت قابعة في احدى السيارات التي كانت تشق الطريق في الزفة . وكانت صامتة حزينة تلف مع انفاسها احشاء الماضي السحيق . بينما كانت الاشرطة الملونة تلتف حول مقدمة السيارة وتزيينها . . انهـا تحاول ان تضرب بكل الاعتبارات عرض الحائط ، سيلتقي معها الليلة . . انهـــا ليست مسرورة جداً لأن الحياة قبل الزواج وبعـــده نفسها لديها . . . فهي تعيش الآن في خضم اللامبالاة . وليست لديهـا نظرة خاصة جداً الى الرجل

الذي سوف تعيش معه بقية حياتها . ولكن عطا مسرور بها جداً لأنها رضيت به بالرغم من أنه يبلغ الاربعين من عمره ، وكاد ان ييأس من الزواج . لم يكن ليعرف حيلة مع رأسه الأشيب الذي تغطيه طبقة من الصبغ الأسود . ومع تجاعيد وجهه الذي حفر فيه الزمن . . لماذا لا ترضى به . عطا هـذا الانسان النبيل الذي يحمل بين جنبيه انقى واطيب قلب عرفته . من كان غيره يرضى بأن ينتشله من مأساتها تلك . وصلت نعيمة الى البيت الذي يتكون من غرفه واحدة فقط . . سرير عريض .. ثمة كرسيان عتيقان وراديو صغير . وبعض الصور المعلقة لراقصات مشهورات . أما عطا فقد تحرك به ركب الاصدقاء متجهين نحو البيت . والهمسات تدور عنه وعن نعيمة . . والضحكات تتعالى . . ثم سأل احدهم

— عطا . مرتك شكد عمرها .

— خمسة وثلاثين سنة . . شبيها ؟

— لا . ماكو شي .

— اغاتي آني راضي بيها . انتو شنو حچيكم ؟

قال الآخر ضاحكاً . .

— عطا . آني اقتلك .

— لويش ؟

— هيچ . اقتلك .

— ليش آني انكليزي . لو يهودي ؟

— بعـد ؟

— يابه وين ما تصفا خلي تصفا . آني بايع ومخلص . ما عندي شيء بالدنيا يسوى حتى اچلب بيه .

ـــ شلون ماعندك شيء. يعني هسه هم مثل الوكت اللي چان بيه الاستعمار مخيم علينا ؟ .

ـــ اغاتي . دخلونا . غير انتو ما تعرفون نعيمة شلون فرد انسانه عفيفة ونبيلة .

واخذ عطا يخطو الخطوات البطيئة . وهو هادىء وكأن ليس هنالك أي تغيير في حاله ، انه رزين وليس طائشاً . وهو غير منفعل لانه لايريد ان يكون مثل الشباب الذين يعيشون بافكار عصر السرعة . وهو يضحك مع نفسه ساخراً لأن البعض يعتقدونه تافهاً بهذا الزواج . واخذ يحدث نفسه . . . لقد جمعهما الحظ في هذا العمر وكان كلا منهما كان ينتظر الآخر . اذا لقد خلقا للبعض ... انه سعيد الآن . سعيد جداً . وهنا ابتسم له احد اصدقاؤه قائلاً . .

ـــ هـا . عطا . دتضحك . يظهر هسه وتشعر بشيء مثل البركان . وتريد تنطلق وتوصل للبيت بسرعة .

ـــ لا والله آني شعوري غريب جداً . ما حد يعرفه . يمكن الشباب يحبون في هيچي حال يركضون حتى البيت . اما آني فلا مهتم . شفتوني داباوع الساعة ؟ لأن حتى ساعة ما عندي .

ـــ لكن لازم تعرف قيمة الوقت . وتكون عندك ساعة .

ـــ اغاتي آني عمري كله راح . شأسوي بالساعة .

كانت السيارات قد وقفت تواً امام البيت . وثارت زوابع من التراب ، لفت الوجوه المنفعلة الجذلة . عندما وصل عطاء وهو لا يشعر بالوقت كيف يمر . وعندما التقى في الغرفة مع نعيمة كانت عيناه تبرقان ببريق غريب . آه . . . لقد اصبحت له زوجة وبيت . . . عجباً . لقد ذهب ماضيه كالبرق الخاطف . لقد ولد من جديد في هذه الساعة . ولم يعد هنالك عمر ضائع . ياللعجب . . . ان شعوره

غريب جداً . انه لايقوى على حبس انفاسه المتلاحقة من الفرح ، وينظر الى نفسه في المرآة . انه متغير جداً . وعندما اخذ يسوي هندامه . التفت الى نعيمة وقال باسماً .

— اشعر هاي أول مرة دا أعتني بنفسي . نعيمة مادتشوفيني آني متغير ؟

فنظرت نعيمة الى عينيه اللتين كان قد فتحهما كالمجنون وظل يحدق وهو يقهقه .

— لا عيني . لويش تتغير . انت عطا . عندئذ جلس عطا بالقرب منها ، وطوق عنقها بذراعيه وهو يقرب رأسه من صدرها ، وكأنه طفل يريد ان يريح وجهه قليلاً على صدر أمه ... وتمتم عطا بصوت كأنه ينتزع نفسه من اعماق سحيقة .

— نعيمة . راح نعيش سوه ؟

— طبعاً . بقية حياتنا . آني إلك .

وبدأ عطا يشعر بانه رجل سعيد فعلاً . رجل له تجارب يعتز بها وهو فخور . انه لا يرغب في ان يقول لها بانه رجل كبير القلب عظيم النبل . ابدا . انها ينبغي ان تشعر بذلك بنفسها . لذلك اكتفى بان ابتسم لها ابتسامة عريضة امتدت الى ذكرياته التي عاش معها لحظات من احلامه اللذيذة . لحظات قصيرة تعادل حياته الطويلة باكملها . لقد تجسدت نظرته في الحياة وتجددت في هذه الثواني ... فمادام قد ولد هذا اليوم من جديد ، فهو يتشبث الآن بكل ثانية من بقية عمره . انه يريد ان ينعم باكبر سعادة ممكنة ، وباعظم لذة متيسرة . لذلك سوف يمسك بكل خيط في الحياة للوصول الى الغاية . ولكن ماهي الغاية ؟... وهنا التفت الى نعيمة وهتف قائلاً . .

— نعيمة هل انت سعيدة ؟

— نعم .

— ولما اراك سعيدة . اشـــعر انا بسعادة كلش كبيرة . انت عمرج خمسة وثلاثين وآني اربعين . بعد شگد باقينا . هواية مو ؟ لازم نعيش كل ثانية من عمرنا . كل ذرة . وباچر راح اشتري فرد ساعه حتى اعرف وقتي زين . . . لأن ثانيه وحده الآن تساوي عمري اللي راح .

هكذا اخذ عطا يستبق الزمن دون ان يدرك ما يفعل ، لقد تعلق بحب الوقت كما يتعلق الوليد بأمه . . . فالزمن اغلى شيء لديه الآن . . . واخذ الوقت يمر واصبح ما يفكر به هو سبب قلقه وهمومه الجديدة . لقد قطع طريقاً شاقاً طويلاً . وبقي امامه جزء اقل . وفجأة هتف عطا وهو في حالة غضب . .

— على اي حال . . راح نكوّن بيت احسن . ونصير عائلة صدگ . كانت نعيمة ترغب في ان تقول . . . ويصير عندنا ولد . ولكنها لاذت بالصمت بعـــد ان كست وجهها مسحة حزينة . ان فرصة الاولاد ذهبت مع الماضي الذي اصبح الآن جزءاً من حياتهما . وفي هذه الاثناء . سمعت نعيمة صوت عطا يقول لها .

— خلي لا نفكر بالماضي هواية .

— خلي ننساه .

— لقد ادرك كل منهما ان الايغال بالتفكير في الماضي سيفسد عليهما العيش لذلك سوف لايفكران فيه بعد الآن . وسيجربان ذلك معاً . وتمر ثانية ودقيقـــة ودقائق . ويشعر كل منهما بالحرارة تصعد الى رأسيما . ويدرك كل منهما بأن السعادة ليست امراً هيناً . ويصيح عطا بعد ان يستيقظ من شرود ذهنه . . .

— احنا محتاجين الى وقت يا نعيمة . احنا محتاجين الى وقت . تمام لولا؟

وبقي جو الغرفة يغطيه الدخان المتصاعد من سيجارة عطا ونعيمة . واطبق الصمت الشامل عليه . ثم نظر كل منهما الى الآخر . وكانت العيون تلتقي وكأنها تتوسل الى

راحتي يديه يفكر ويفكر عندما رأى دخاناً قاتماً يهتاج من داخل الأتون ، ويضج به الدكان ، فيدوخ رأسه في دوامة عنيفة ، وتمر اللحظات التالية وهو يكاد يختنق من ضيق التنفس داخل الدكان . لقد ظل الكابوس الثقيل يطارده بين حين وآخر. وبعد ان تمكن من اختراق امواج الدخان ، ودخل الى الركن القصي من الدكان عثر على سطل الماء ، وبسرعة ودقة تمكن من ان يسكب الماء على السنة النيران المتطاولة. فيخمدها في قعر الأتون . أف ، إن الحظ السيء يلازمه في كل وقت . لقد خرج من البيت صباح اليوم الباكر ، واتجه الى عمله ، ولكنه لم يخرج كباقي الناس . لقد تأمل الوجوه التي التقى بها في الطريق . لم يجد نفسه مشرق الوجه مثل البعض منهم . وتساءل في نفسه . . الى متى يبقى ينتظر يوماً جديداً ينقذه من رتابة هذه الحياة التي لايتهلل فيه وجهه نحو المستقبل ؟ ! ان اباه يسومه العذاب المركل يوم ، منذ أن توفت أمه قبل أشهر . لماذا يقوم ابوه بهذه الاعمال الخشنة ؟

— أعطني خمسة ارغفة . ألاتسمع ؟

— خذ .

ان اباه بعمله هذا . سوف يقتل الرحمة في اعماقه ولاشك . وهو يعلم بأن هذا ليس من طبيعة عمل الآباء . لهذا السبب ، فهو يشعر بآلام نفسية عميقة . وليقل بصراحة انه يكره اباه . . اجل يكرهه ، لأنه اصبح قاسياً غليظ القلب منذ ان توفت امه ومنذ ان تزوج من امرأة اخرى يظن انها لاتعرف ان تنطق بكلمة رقيقة حلوة . اجل هذا هو سبب شقائه . وهذه هي العلة الاساسية التي يشرد بها ذهنه ، دون يجد من يفهمه كلما وقع في هذا المأزق . وقد حدث ان رأى والده في موقف لاينساه أبداً . ومنذ ذلك اليوم ، انقلبت به الحال رأساً على عقب وبات على طول خط الحياة ، لايرتاح الى عشرته ، فلا يرفع اليه بصره الا نادراً ولايحدث ان يراه والده ، الا ويكون عابساً مقطب الجبين . وكان يشبعه ضرباً لأنه

يعتقد بأنه عالة ثقيلة على حياته ، بالرغم من انه لم يبق عاطلاً ابداً ، بل انه ظل يتنقل من عمل الى آخر ، فيأتي له مساء كل يوم بما يأخذه من اجور . ومرة من المرات ، رأى والده قد انقلب الى شيء اشبه بوحش هائج . لقد الهب ظهر امه بحزامه الجلدي ، فكان يقرقع به وينزله كسياط جائعة على جسدها النحيف دون رحمة .

هذا هو سبب تصوره لشكل والده بهذا المنوال ، الذي يتمثله كالغول قاسياً فظاً متبلد المشاعر . وهو يذكر الآن جيداً ، كيف انه كان قد حظر عليها الخروج من البيت ولم يكن ليسمح لها حتى بأخذ الاذن منه . وعندما كانت امه تتجرأ وتسأله عن سبب ذلك . لم يكن جوابه في كل مرة سوى انه يفعل ذلك عناداً لعنادها ، ومنعاً للرغبة المتكررة التي تبديها كل يوم . لقد رأى اباه على تلك الصورة . وبذلك كان قد غرز في براعم قلبه الفتية بذور الكراهية والفظاظة .

— ايها الابله ، ترى الى متى انتظر الخبز . اعطني عشرة .

— خذ .

كان قد خرج في الصباح الباكر ، مثقل النفس بالهموم ، ترتبك قدماه على ارض الشارع في مشية قلقة ، وبالاخص عندما كان يعبر الى الجهة الاخرى . كان رأسه يرزح تحت ثقل الافكار الصاخبة المختلطة التي تنزل عليه كالمطارق . ملابسه ممزقة ، وهو يمشي حافي القدمين . اسباب كثيرة تذكره بأمه التي كثيراً ما كان يلجأ الى صدرها الحنون في مثل هذه الحالات . وما اكثر ما تتمثل له صورتها كملاك جميل تشع اعماقها نوراً ورحمة . ولكن حتى هذه الذكرى محرمة عليه الآن . فهو كثيراً ما ينتفض من ذكراها وشروده بها على اثر سماعه صوت ابيه الذي ينهره ويثير شجونه بقوله ... تفكر بها ايها الملعون . انت مجبول على سجية امك تماماً . ولهذا السبب اراك لا تسمع كلامي . ولكن لا تظنن بي مغفلاً . انني ادرك الحقيقة

ناولني بعض الخبز ، اريد خمسة ، قالها رجل كان واقفاً ازاء المخبز . وناوله الصبي اقراص الخبز ، وانصرف نحو الأتون وهو يتأفف من شدة الحر ، ثم تساءل ساخراً : يظهر ان شدة الحر لاتكفي لتصطلي اعماقي بنيران العذاب والسنة الآتون التي تمتد نحو وجهي . ثم تباردت الى ذهنه فكرة كانت منعشة نوعاً ما . ولكنها مرقت كالسهم بعد ان اذكت في نفسه الامل البهيج . كانت مشكلة سعيد الكبرى ، هي الخيالات التي تأخذ بفكره ، فينسى بهانفسه وما يحيط به ، الى ان يشعر بصاحبه الذي يرفسه على ساقه فجأة ، وهو ينهره قائلاً . . الا تترك هذه العادة الخبيثة . الى متى تبقى على هذه الحال ، فتنسى الخبز ليحترق في الآتون ؟ . في هذه الاثناء كان سعيد قد شرد به فكره مع الآمال العذاب . لقد انصرف صاحبه للغداء قبل قليل ، فسخت بذلك الفرصة ليأخذ بعض الراحة .

— اريد ثلاثة ارغفة . . ليس لدي الوقت للانتظار .

— خذ هذه ثلاثة .

هذه هي الفرصة المواتية ليتحدث مع اقرانه قليلاً وينعم بلذة الركون الى في الجدار المقابل للمخبز من عناء العمل ولفح النار . كان قد وضع وجهه بين

ان يسلم كل منهما بالامر الواقع ، ما دام الزواج قد تم . وما داما سيعيشان معاً بقية الايام . سوف يعيشان عالمهما الخاص بعيدين عن الناس.

كان قد مضى على لقائها اكثر من ساعة . عندما قال عطا ضاحكا . .

— آني ما اريد انام هسه . قالت نعيمه وهي تنظر بعيون كليلة .

— آني هم ما اريد انام هسه .

— لعد خلي نسولف شويه . فقالت نعيمة وكأنها تشعر بالخجل من عطا الذي اصبح زوجاً لها لأول مرة .

— شتگول ؟ . اجاب عطا وهو يهز كتفه ضجراً دون مبالاة وكأنه يدفع بكلامه ثقلاً من على كتفه .

— ايه . نسولف . . باچر موت . هي وين ما تصير خلي تصير .

الصـــبي

" .. وحتى في باص المصلحة ، هنالك
فارق كبير يبدو من الحاجز
الـــذي يفصـــل بينهما "

في كل شيء . وعندما يسمع سعيد مثل هذا الكلام ، يضطر الى ان يجرع مرارة الالم في صمت وهدوء . ثم انه سمعه يقول له هذا اليوم . . وفي عصبية بالغة . . . اسمع ما اقوله لك . اذا طردت من عملك هذه المرة ايضاً ، وبسبب داء النسيان الذي اصبت به وبسبب شرود افكارك ، فانني اعرف كيف القنك درساً لاتنساه وقال له ايضاً . . انت لست آدمياً كباقي الناس . انت مصاب بعاهة كبيرة . لوكنت آدمياً لأكملت المدرسة . اجل . فالناس يسخرون مني لأنني لم ادخلك المدرسة . او اهيء لك فرصة التعليم ولكني سأقول لهم . . ايها المجانين الا تعلمون بأن هذا الصبي قد كتب على صفحة وجهه التشرد والجهل . انوجهك نحس . وهكذا فهو لايفتأ يتهدده ويتوعده لأنه غبي يغفل عمله اينما عمل اذ يغرق في شرود افكاره فيشكون اليه اولاً ، ثم يطردونه من العمل ، عندئذ يضطر الى ان يشبعه ضرباً وتعذيباً . ثم يتركه في ركن من البيت ، يكفف من عينيه الدموع الغزيرة . ولايطعمه شيئاً طوال نهار كامل ، فيظل يطوي بطنه الخاوى على الطوى والجوع ، فتكون ذكرياته عن امه هي السلوى الوحيدة التي يلجأ اليها ، بعد ان فقد القلب الرؤوم . فطعن في كبريائه حتى تضعضعت ثقته بنفسه ، وكاد ان يرى نفسه شيئاً لاقيمة له .

اخذ سعيد يعصر رأسه بأصابعه المرتجفة . . يارب . . . لماذا ترى انسى نفسي دوماً مع هذه الخيالات ؟ واسرع راكضاً نحو الآتون ، واخرج بعض اقراص الخبز التي كادت ان تحترق . ثم تحسس موضعه في الدكان وهو يحدث نفسه قائلاً . . اللعنة على هذه الخيالات .

— نعم . كم تريد ؟

— ستة .

— نعم . خذ .

وأخذ يناول الزبائن بعض الأرغفة ، بينما يركز همه الأول ، في رأسه وأفكاره . إنه يريد أن يقطع على نفسه التفكير . ويضغط على أعصابه بألحاح بأن يقطع مشاعره ويخمدها . ولكنه وجد نفسه في هذه الحال ، قلقاً الى غاية ما يكون القلق . وشعر بقلبه يعصر وكأنه وقع في قبضة وحش . وأسرع وأخرج اقراص الخبز التي كادت ان تحترق ايضاً . اين كان حتى الآن ؟ هل كان مع الخيال ايضاً . وبعيداً بعيداً ؟ ومسح العرق الذي تفصد به جبينه ووجهه النحاسي الطويل الذي لوحته لفحة النار الى لون أحمر كالدم . ولملم اطراف دشداشته المهلهلة التي تقادم عليها الزمن ، ودس بجزء منها بين حزامه العتيق ، فظهرت قدماه الحافيتان وقد تشقق جلدهما وغطاها الطين . كذلك انتبه احدهم الى حاله في صباح هذا اليوم ، عندما اندس بين الواقفين في انتظار باص المصلحة . لقد رأى احدهم يزم شفتيه تقززاً منه . كان يشدد قبضته على القطعة النقدية التي لا يملك غيرها . بينما لمح طفلاً كان قد وقف بجانبه . كان شكله جميلاً وقد تأنق بملابسه النظيفة وشعره الممشط الذي كان يلمع تحت الشمس . بالاضافة الى كل هذا ، كان رجل انيق يمسك بيده الصغيرة في رفق وحنان . كان سعيد ينظر وهو يشعر بثقل اللحظات التي تموت مع الآلام التي تحز في قلبه . وحاول ان يقنع نفسه بان سبب هذه الآلام ليس هو الجسد . وشعر برأسه وكأنه قد تضخم أكبر حجماً من اثقال الهموم . وعندما وجد مكانه في السيارة بدأ ينظر الى مؤخرة رؤوس الجالسين في الدرجة الأولى ، وكان من بينهم الصبي الانيق ، الذي غاص في المقعد الجلدي الناعم . كانت نظراته الغريبة تبحث عن شيء يريد بها ان يكتشف شيئاً في هذه الرؤوس . حتى في باص المصلحة وجد ان هنالك فارقاً كبيراً يبدو من الحاجز الذي يفصل بينهما . ثم ارتكزت نظرته الساهمة في وجه رجل جلس قبالته . كان يبدو فظاً مفتل الشارب متغضن الوجه في عنقه اثار ضربة اشبه بجرح السكين . كان قد امسك

برقاب حديث طويل لا يريد ان ينتهي منه . واخيراً قال لصاحبه وهو يفتعل الغضب .. خلاصة الكلام ... انا اعرف كيف أخذ منه المبلغ حتى ولو كان ذلك بالقوة ... ثم توجه الرجل اليه قائلاً ... بماذا تفكر ايها الشيطان .. تعال واشتغل معي في المخبز ... فانا اريد صبياً خشناً مثلك - وراعه ان يرى في عينيه صورة ابيه وكأنه يرى غولاً يكاد يقتله . انه سوف يصيح به اريد يومياً ثلثمائة رغيف كما يصيح به ابوه أريد اليومية الكاملة غير منقوصة . انت على سجية امك . لا تسمع كلامي... ولهذا السبب سوف اتزوج قريباً من جارتنا . الارملة المسكينة . اسمعت . انني اريد اليومية منك كاملة .

— بعض الارغفة رجاءاً ، كررت عليك النداء عدة مرات .

— خذ . تفضل . لاتنزعج .

— ماذا بك ؟ انت لاترى الناس الذين يقفون امام المخبز .

— اشعر اليوم بصداع في رأسي .

— في امان الله .

— طيب . في امان الله .

والظاهر ان اباه لا يفكر إلاّ في المرأة . فهو لا يفتأ وان يقول ... لعنة الله على البيت الذي يخلو من المرأة . فمنذ وفاة امك وانا اشعر بقلبي وكأنه يغور في فراغ هوة سحيقة إذ اتلفت ولا اجدها قريبة مني . لهذا السبب سوف اتزوج سكينة ... اجل جارتنا التي تحبك مثل امك . إلاّ تراها كيف تناديك من الشباك كل يوم ، وتدغدغك وتمشط شعرك . لقد تتابعت الاخيلة في ذهنه وشعر بالجوع ، عندما كانت السيارة تمرق به صباح هذا اليوم امام صف طويل من الدكاكين . فقد برزت امام عينيه اصناف من الاطعمة المختلفة . وقد بلع ريقه عندما راى احدهم من خلال زجاج المطعم يدس ملعقة الاكل في فمه . آه . انه يحس الآن بحلقة قد

جف ، والتصقت بلاعيمه ، بينما أخذ العرق يتصبب من كل جسمه ، فيشعر وكأن هنالك على صدره وظهره خطوطاً ملتهبة أو شرارات من نار . وبينما كانت خواطره لاتزال تختلط في ذهنه بعنف ، وإذا بنيران شديدة تندلع من كوة الفرن فتقطع عليه شروده ، وتخرج ألسنة النار نحوه وكأنها وحوش ضارية . وأخذت قدماه ترتبكان وتتعثران على أرض المخبز وهو لايدري ماذا يفعل ، فالسطل ليس فيه ماء. وإن صاحبه ما يزال ينعم بالراحة في بيته من قيظ الظهر الشديد . وتذكر قارورة الماء التي يشرب منها . فخف إليها ورش ما فيها إلى داخل الاتون فأخذت السنة النيران تتراجع شيئاً فشيئاً ، إلى أن سكنت في قعر الفرن الذي غطت الادخنة داخله بقطعة كثيفة من السواد . وجلس حزيناً وهو يتمثل في خياله شبحاً مخيفاً يريد أن يقتل الحقيقة في نفسه . لأنه لايمكن أن يفهم هذه الحقيقة .

— الا تسمع ايها الأبله . . . اعطني خبزاً .

— لماذا تكلم هذا الصبي بهذه اللهجة الجافة . ألا ترى الفرن وقداحترق . ماذا حصل أيها الصغير ؟

— شبت فيه النار بقوة . . بينما كنت . . . كنت

— كنت ماذا ؟

— كنت أفكر . . في هذه الحال . . .

— لاتبك . لاتبك . فأنت رجل ، ولست صغيراً كباقي الأطفال .

وفي هذه الأثناء . كان صاحب المخبز قد برز أمامه ، وهو يمسح العرق من وجهه الذي يعصف به الغضب بمنديل كبير . كان ينظر الى ما جرى داخل الدكان بذهول ، ثم تقدم قليلاً وجعل يلعن حظه العاثر الذي رمى بهذا النحس على طريقه صباح اليوم . كانت أوصال الصبي ترتعش خوفاً ووجلاً . وراعه أن يرى الأوسطه نتيجة المحذور الذي أسقط في يده . كانت الادخنة الثائرة قد هدأت . وكان الصبي قد أخرج الأرغفة التي التهمتها النيران الغادرة ، ووقف خائر القوى مكلوم الفؤاد.

كانت نظراته تتوسل الى الواقفين أمام المخبز ليتدخلوا لعمل شيء من أجله . فتقدم أحدهم وقال الى صاحب المخبز .

— ألا ترى كيف غارت عيناه لما وجد أن هذا يحدث في غفلة منه . صاح صاحب المخبز في غضب وهو يضرب بقدمه الأرض .

— هل هو أعمى لايرى شيئاً ؟

— لاتنس شدة الحر . وألسنة هذه النيران المحرقة . انه مسكين . فاستشاط الرجل غضباً ولأول وهلة أطبق يده الضخمه على يده الرقيقة وراح يعصرها بعنف، والصبي يصيح بأعلى ما تطيقه حنجرته . ثم تمكن المسكين أن يفلت من بين يديه ويركض خارجاً ، أثناء ما كانت يده الثقيلة تلهب وجهه ورأسه وكتفه . وهنا كان الواقفون قد تمكنوا من إنقاذ الصبي من يد هذا الوحش . بينما كان هو يلهث كالثور وهو يقول له . .

— أردت أن تهدم بيتي . إذهب لعنة الله عليك . قال الصغير من بين الواقفين وكأنه يستنجد بهم .

— انه لم يعطني الاجور . . قال صاحب المخبز . .

— أنت لا تستحق الاجور . لك نصف نهار . ثم إنك أحرقت التنور . إذهب . وقبل أن أخبر عنك الشرطة .

كان يعتقد بأنه سيقبض في هذا اليوم يوميته الكاملة . وسينصرف إلى البيت راضياً مطمئن النفس . غير أن الكابوس الثقيل الذي يلازمه لم يشأ أن تنقشع له غمامته القاتمة . لقد كان شرود أفكاره هو السبب أيضاً . وضرب بقبضته على رأسه وهو يقول في نفسه . . لعنة الله على هذا الدماغ . وعندماوجد نفسه يسير في الشارع. ونظر الى السيارات الفارهة التي تمرق بسرعة ودون مبالات أيقن أنه يعيش في واقعه المر . هذه امرأة نحيفة يبدو عليها المرض قد اقتعدت الرصيف بينما توسد فخذها صبي نحيف وراح في نوم عميق هو أشبه فيه بجثة هامدة . كانت تمد يدها

وتكرر عبارة واحدة فقط . . . لله . لله . يا اطيب الناس . وعندما التقت نظراته بنظراتها شعر بأحشائه وكأنها تتقطع ، وطفرت دمعة كبيرة من عينيه . ثم اسرع الخطى وراح يقطع الشارع حتى اخذ يلهث من التعب . لقد افزعه وجه تلك المرأة المسكينة . كانت عيناها غائرتين جامدتين في محجريها وكان الدموع قد جفت فيهما . وجعل يستطلع وجوه المارة وكأنه يريد ان يرى من يلتفت اليه او يلقي اليه بالاً . وانفجر في دماغه شيء وكأنه اسلاك من نار ، وانه سرعان ما اطرق برأسه وكأنه جمد في مكانه او كف عن التفكير . اجل هذا هو صندوق من الدراهم امامه . سوف تذهب عنه عاهة النسيان والتفكير الى الابد . كانت قدماه ترزحان بثقل ، ويحس برأسه كبيراً ينفث السموم بما يثير اعصابه . صندوق من الدراهم . وفكر في ابيه وغضبه . كيف يقنعه بما حدث له هذا اليوم ؟ وراعه ان يرى في خياله عصى غليظة تنتظره في البيت . ما هي الحيلة ؟ الصندوق . أجل .

انه لايدري كم من الوقت قد مضى وقدماه مسمرتان في الارض . هناك عند دكان كبير . واعترت اوصاله رعشة غريبة عندما حاول ان يحرك قدميه . ما هذا الذي يراه امامه . نقود . صندوق من الدراهم . انها في متناول يده فان صاحبه يبدو غائباً عن المكان . ايحتمل هذا ؟ وكان انفجار عنيف قد دوى في اعماقه عندما قفزت في ذهنه كلمة مخيفة . . السرقة . واصاخ لصدى اعماقه السمع . اجل ليست هنالك غير السرقة . ولكن غياهب السجن ستكون بانتظاره . هذا لايهم انه سوف يركض بأقصى ما يستطيع من السرعة . واذا وقع في يد الشرطة ؟ عندئذ فانه يعرف كيف يتكلم امام الحاكم عن الشقاء الذي عاشه ، وعن معنى اليأس الممض الذي يقتله في اليوم الواحد الف مرة . اجل . من غير شك ان القانون سوف يعطيه الحق . ولكن قلبه قفز من كلمته فجأة اذ سمع من ينادي به . سعيد . سعيد . ماذا تفعل ؟ جمد في مكانه وهو يلتفت في اطرافه . وعندما لم يجد المنادي ظل يشعر بالخوف من ان ينكشف ما يجول بذهنه . ثم اخذ يستعيد شجاعته ، ولم يمض وقت طويل حتى كان

قد مد يده الى صندوق النقود ، فخطفها وراح يركض بأقصى سرعة . كان وهو في هذه الحال ، يستشعر في كيانه فرحة قلقة ممزوجة بالخوف . وكانت اعماقه تنطوي على مزيج من مشاعر الانتصار والفزع والخجل والتردد . وكانت سحنته قد انقلبت الى شكل عجيب لايشبهه بتاتاً . كان شاحباً تتراقص علائم الانفعال على وجهه الذي اتسعت فيه عيناه وهما تقدحان الشرر فأصبح في حال اشبه بالمجنون . كان مازال يطبق بكلتا يديه على الصندوق وهو يخترق طريقه من بين المارة بأقصى ما يستطيع الى ان اضطر ان يعبر الشارع بنفس هذه السرعة . وهنا كان مَا كان له نهاية مؤسفة. لقد مرت تلك اللحظات بسرعة لايمكن معها ان يذكر كل ما حدث له بالضبط . وبدا له رأسه واهياً وعزمه فاتراً واليأس لايدعه ان يرغب في مواصلة العيش الى حياة افضل . لم يكن يشعر بالندم لأنه لم يكن يشعر بالخطأ في عمله . كانت صفارة الشرطي مارتزال تمزق سمعه . وكان هو قد سكن بالقرب من الرصيف ، وسقطت يده على المياه الآسنة التي تناثرت فيها حفنة النقود . كان ما يزال يجيل عينيه في وجوه الذين وقفوا ينظرون اليه في حزن والم دفين . بينما كانت بعض الرؤوس تدور على الارصفة وتتهلل بعض الوجوه لغرابة منظر السباق الذي قام به الصبي مع رجال الشرطة . إلا ان جميع الوجوه سرعان ما انذهلت واكتست بوشاح من الوجوم . وفي هذه الاثناء كان سعيد قد فقد وعيه والدم ينزف من رأسه بغزارة . بينما كانت تلك الدراهم اللعينة التي تناثرت على الارض تلتقط لتذهب الى من تذهب . وحمل الصبي الى سيارة الأسعاف التي اطلقت صفير الانذار المزعج بينما كان ما يزال سؤال حائر بقي يدور في الاذهان . ترى ما هي جذور قصة هذا الصبي لتنتهي هكذا بمأساة ؟ فلعله كان يحمل قلباً كبيراً ، واكبر مما يحمله غيره . ولعله كان يدرك عظمة المسؤولية الملقاه على عاتقه اكثر مما يدركها الغير . واخيراً فتح سعيد عينيه في المستشفى ، و بتسم وهو يشعر انه يفتحها ليرى ويدرك اشياء جديدة .

رجـــل يفكر

« انفتح الباب امام نفسه لتنطلق للعيش على الرحب . لقد انزاح ثقل كبير كان يجثم على صدره ... من منهما قد انتصر ؟ انه يقول هـو الذي قـد انتصر . أو هكذا اخذ يقنع نفسه »

أخذ الغضب يستبد به وهو يدور في ارجاء البيت .. وبدأ يفرك يديه وقد اضحى فريسة للقلق والحيرة . وسحق عقب السيجارة باصابع مرتعشة داخل النفاضة . وتتلون الجدران بلون الدخان . وتمسح الوان قاتمة على السقف .. ويبدو المنظر من خلف النافذة كالحاً حزيناً ... كان يجب ان يصارحها ويحسم الامر معها منذ ان اخذ الشك يأكل اعصابه ويقض مضجعة . وطرح بجسمه المنهك على المقعد . وشعر انه اصبح ثقيلاً وانفاسه تهدأ شيئاً فشيئاً . واستقرت يداه على سماعة التلفون . وبيده الأخرى اخذ يعصر جبينه . ان المكان يبدو خالياً موحشاً جداً . لقد خرجت زوجته من البيت منذ لحظة خروجه الى محطة القطار الذي كان سيقله الى البصره . ولم يخطر لها ببال انه قد يعدل عن السفر ويعود الى البيت . وأنه ستكون هنالك مفاجأة شديدة إذ يطلع على خفايا اسرارها ... الظاهر انه يجهل الكثير عن امور حياتها الخاصة . أو يبدو له وكأنه لا يعرف عنها شيئاً . إذا ينبغي ان يقف عليها الآن . اجل انه ليس بالرجل الغبي الذي لا يعرف مما حوله شيئاً .. انه يحمل من الذكاء ما يؤهله الى ان يتصرف بحكمه ويتمكن من كشف الأسرار . ان ما يعلمه الآن هو ليس محض شك يعلله من عند ياته أو من اعماق نفسه . ولكن يا للأسف .

لقد احب هذه المخلوقة يوماً من الأيام حباً صافياً . وشعر في اعماقه انها تحبه هي أيضاً . فتزوجها لا لكي تكون زوجاً له فحسب . بل لكي تكون له صديقة وشريكة وحبيبه .

ومرت سنون لم يكن هنالك ما يشوب عليهما نقاء الحياة ... انه سوف يلقي بوجهها البرهان الساطع . ولكن كيف انقلب الوضع ؟ وكيف وجد هذا الحب الذي ينقلب في قلبه فجأة الى شيء اشبه بالكراهية . وعض على شفتيه واخذت عيناه تقدحان بالشرر. هذه هي صورتها المعلقة على الحائط . انها جميلة . بل انها رائعة . ان هذا الوجه المدور ، وهاتين العينين العسليتين الناعستين . وهذا الثغر الباسم الرقيق . هذا الشكل المركب في انسجام تام هو ما يخلق له البلاء والمشاكل . كان ينظر اليها ذلك اللعين نظرات وكأنه يريد ان يلتهمها . وهي كانت تلتفت وتبتسم في دلال . ولعل ابتسامتها التي لا تفارق ثغرها هي التي توهم البعض بانها تبتسم لهم . وكيف له ان يعرف بانها لا تبتسم لهم . واخيراً ماذا يفعل ... هل يقتلها ؟ ولكن الفضيحة تبقى لصيقة به طوال العمر . واذا بقي ساكتاً مكرهاً فان أيامه ستصبح جد تافهة ، يبقى يتجرع حياته ويخدع نفسه بها على مضض ... هنالك بصيص من الأمل ... لماذا لا ينبش في خياله ومن خلال شكوكه لعله يقع على شيء مقنع .؟ عليه ان يضع يده على اشياء مادية . لقد ظل يراقبها مرة بعد مرة ... وفي يوم دخل الى البيت فجأة وكان ان رأى لونها يتبدل ويمتقع وكان الانفعال بادياً عليها . انها لا تعرف كيف تنظم حركاتها وكأنها تريد ان تتلافى أو تخفي عنه شيئاً . ولكنها سرعان ما تقنعه بانها شعرت كثيراً بالانفعال لانها وجدت ان تصرفه كان كمن يتجسس على أمر . ثم انها ضحكت أخيراً وقالت له بعد ان داعبته بضربة من يدها خفيفة : لقد اصبحت تشعر بالغيرة هذه الأيام كما يبدو لي . لاتكن هكذا وإلا سأضيق بك ذرعاً . ان الحياة الزوجية لا تطاق مع الغيرة . انها ذكرت الحياة

الزوجية . سر بهذا الكلام وكأنه كان قد نسي انه متزوج فذكرته هي برباط يشد بعضهما بالبعض ، ولا يمكن لأحد ان يتدخل بينهما . لقد اخذت الأفكار والوساوس تنتابه . ولكن لماذا كانت مسروره في ذلك اليوم ؟ لم يكن هنالك سبب معقول لهذا الفرح الطاغي على محياها . انها تبدو وكأنها مشغولة في عالمها الخاص . انها لا تشعر بوجودها بالقرب منه . فسألها وهو يريد ان يصارحها بانها تفكر في غيره . ولكنه لم يقل لها اكثر من انه يراها مغتبطه كثيراً . فكان جوابها ... انك بنفسك تقول لي دائماً لا تدع للحزن مكاناً في قلبك وان كل شيء سيكون كما نريد . والآن عندما تراني مسروره وانا اتصنع بان اكون مسروره اراك تسألني عن السبب وتنظر الي نظرات ذات مغزى . قل لي بالله كيف تريدني ان اكون ؟ . قالت هذه العبارة وهو يلمحها انها تختلس النظر الى جهاز التلفون . ثم تروح جيئة وذهاباً فيظن بانها تريد ان تبقى تفكر لوحدها ... هل ترى تنتظر المخابرة من احد ؟ ولكي يتيح المجال لاكتشاف الحيقة اخذ يخطو تاركاً المكان الى الغرفة المجاورة ويسترق السمع منها . ومرت دقائق صمت . انه لا يسمع شيئاً . هل يدخل فجأة ؟ كلا انها ستزداد خوفاً منه . اها . هذه هي ذى ممسكة بسماعة التلفون . . انها تتكلم : والله اريدكم من كل قلبي . . كنت قريبة من التلفون . . عادل زوجي بالبيت . . والله مشتاقة . هذا شيء بسيط . بس والله الآن مشغوله . . اريد الفرصة المناسبة . وعندما وضعت السماعة الى مكانها ووقعت عيناها على زوجها وهو ممتقع اللون وقد جمد في مكانه كالصنم . وفي عينيه الشرر يتطاير . عندئذ أخذت ترتجف . ولكنها تمكنت من ضبط اعصابها وارادت ان تقول شيئاً من أجل المداعبه . فابتسمت وهي تقول :

ـــ ارى انك تراقبني . لا داعي لهذه المتاعب . امسح الغيرة من قلبك .

فصاح بها في غضب .

ـــ لماذا تكلمينني بهذه اللهجه وبهذه الجرأة . ؟

عندئذ شعرت بألم الدوار في رأسها وهي مستغربة . ولكنها قالت بكل هدوء .

ـــ انت عصبي الآن يـا عادل . لماذا ؟ هذا غريب منك ؟

ـــ اجل غريب مني لأنني لا اعرف من أنا . لأنني انسان احمق وقد وضعت كامل ثقتي في حب مزيف . ليس من حقي ان اغضب لأن ليس هنالك سبب لذلك بنظرك . ولان لم يحدث شيء لحد الآن . انني لا اريد ان اسكت عن الجدار المائل الى ان يتهدم . المهم ان لاتدع الجدار هذا يسقط عليك . وشمل المكان صمت ثقيل . اخذ هو يستعيد في ذهنه صورتها وهي ممسكة بسماعة التلفون يد مرتعشة . وتقاربت حاجباه وتقلصت عيناه عندما بدأ يفكر بعمق . ألم يد انها بعثت بقبلة صامته في التلفون . ولكنها لم تكن مرتبكة عندما ابصرته أول الامر . بل انهـا ابتسمت ثم كادت ان تطلق ضحكة عالية كعادتها اذ تراه عصبياً . ولكنه كان ينظر اليها بعينين زائغتين . لقد ذهبت الى الغرفة المجاورة لتبكي هناك ... لماذا لاتجد المرأة حلاً للمشاكل غير البكاء ؟ انها تنسحب من ميدان المعركة في ضعف وتلجأ الى الدموع تاركة الرجل يصارع الأزمة بوجوده . انه يريد ان يقول شيئاً . يريد ان يتكلم كيفما اتفق . وخطـا نحو الغرفة المجاورة وهو يقول ... جئت لاجد بعض الراحة في البيت . شأني شأن الناس . اليس كذلك . ؟ فاتسعت عيناها خوفاً وانزعاجاً واضطربت وقالت بصوت مرتعش .

ـــ اهذا انت الذي تتكلم بهذا الشكل يـا عادل ؟ فصاح بها منزعجاً هـو الآخر وقد علا وجهه الاصفرار وقال . .

ـــ طبعاً يزعجك حضوري الى هذه الغرفة لتبقي بعيدة عني . مع من كنت تتكلمين ؟

ـــ مع نفسي . احب ان ابقى وحيدة احدث نفسي .

— انا اقول كلا . انك تفكرين في شيء آخر .

فازداد ارتباكها وقالت .

— الى هذا الحد تشك في يا عادل ؟ جلس بقربها وقال :

— لنتفاهم . قولي لي كيف تشعرين نحوي . هيا انطقي ؟

عندئذ اخذ صوتها يخفت مع انفاسها حتى تكاد ان تختنقها العبرة . فبدأت تنشج بكاء شديد . وعندما راى عادل بان المسألة لا يمكن ان تحل بهذه الصورة أخذ الغضب يعتمل في صدره من جديد . فصاح باعلى صوته وهو يعصر رأسه بيديه قائلاً ..

— لقد كتب علينا ان نعيش في جحيم الحياة الزوجية فيما لو استمرت الحال على هذه الصورة . انني اريد ان اتفاهم معك . قولي لي أي شيء . فاجابته بسرعة ..

— ماذا اقول وانا لم افعل اكثر من مكالمة أمي بالتلفون . هل هذا حرام ؟ مرت هذه الكلمات دون ان تثير في نفسه أي شيء . ولكن استوقفته الكلمات الأخيرة عندما قالت . لكم كنت تحبني يا عادل من قبل . هل كنت ترغب في عذابي هكذا ؟ . يا لله . ماذا قالت ؟ لكم كنت تحبني من قبل يا عادل . واحكم رباط عنقه وهو يحدث نفسه . انها صادقة في كلامها على اكثر تقدير . ولكن لماذا تبكي ؟ هل ان البكاء عمل صحيح ؟ ولشد ما كانت دهشته كبيرة عندما خطر له بانه من الجائز ان يكون بكاؤها كذباً ايضاً . واسرع الخطى نحوها وهو يتضع الضحك والانشراح قائلاً ..

— اذهبي الليلة عند صديقتك سعاد . انك تشعرين بضيق الوحدة في البيت . واستدار على عقبيه بعد ان كان يريد الخروج . بينما وقفت هي في مكانها مسمرة القدمين مستغربة . ثم خرج دون ان يبين سبباً لخروجه . انه مايزال يضرب الاقدام مشياً في الشوارع عندما اخذ يفكر في حاله وفي نفسه فاستسخف

فكرة خروجه من البيت بحجة اعطاء الفرصة لزوجته بان تخلو لنفسها وتتمتع براحة الوحدة وصفاء الفكر . ثم فكر في العودة الى البيت تواً . لقد فشل فشلاً ذريعاً في تحيق ما اراده . ينبغي ان يدبر محاولة جديدة تكشف له الحقيقة مائة بالمائة . انه سوف يلمس هذا الشك بيده أو يد حضه ويقطع دابره . كان يشعر بالخجل عندما أخذ يسترق الخطى الى داخل المنزل . وازداد ارتباكه عندما وجد زوجته في البيت التي بادرته بالضحك وهي تقول . .

— اتعلم يا عادل بانني كنت انتظر منك التلفون . طبعاً لتأكد من اني موجودة في البيت . وطبعاً كما فعلت لما ارادت السفر الى البصرة عن كذب . اقصد انك اردت ان توهم بالسفر . عندئذ كنت انتظر منك محادثة بالتلفون من المحطة وليس من البصرة . قال وهو يحاول ان يبدو طبيعياً .

— انك لم تكوني في البيت . . .

كان يظن في ذلك اليوم بانه سيصيدها حتماً . لقد عاد بسرعة جنونية . وعندما ادار المفتاح في الباب . كان يتوقع ان يراها وهي تفاجأ به . وكان يتوقع ايضاً ان يحدث كل شيء في ذلك اليوم . وان تنتهي قصتهما في هذا الحد والى الابد . ولكن لم يطرأ على الوضع أي تغيير . لقد اراد ان يقلب كل شيء رأساً على عقب . وضحكت الزوجة فانتبه الى نفسه أثر سماعه الصوت . قالت . .

— اتدري لماذا اضحك الآن ؟

— اجل . لأن الوضع في البيت بقي على نفس الحال . كان يجب ان اعرف كل شيء .

— انا لم اتغير ابداً . ولكنك تغيرت كثيراً خلال سنة واحدة فقط . ومن المؤسف ان يفكر الانسان من الآن بثقل السنوات المقبلة . وكان عادل قد اخفى وجهه بين يديه عندما اقتربت منه واخذت انامله الرقيقة تعبث بشعره وقالت . .

— كفي . يا عادل . لنضع حداً لهذه المأساة . انني ما ازال احتفظ بالرسائل الغرامية التي ارسلتها لي . وما ازال اعتز بذكرياتنا الحلوة . انك تتخيل اشياء لا وجود لها إلاّ في خيالك . لقد وصلت بك الأفكار الشيطانية الى ان تفكر بارسال رسالة غرام لي باسم آخر . انني اخجل من نفسي عندما اجدك تفكر هكذا . ماذا حل بنا كي نعيش في مثل هذا الجحيم . ونخلق هـــذا الارتباك في حياتنا . وسكتت عندما اخذت تفكر في ضعف النفس . وبدا لها عادل انساناً مسلوب الارادة . كأن الكرسي يهبط به الى الارض . وقد تدلى رأسه على صدره وانفاسه تكاد تبدو ساكنة الى حد الموت . اما هي فقد اخذت تشعر بالاشفاق عليه . فاقتربت منه وابتسامة رقيقة تطغي على ثغرها الجميل وقالت . .

— تعال يا عادل واجلس بجانبي . ولنفكر في حل امورنا . بل في حل هذه المصيبة بانفسنا . كانت ماتزال تبتسم عندئذ ابتسم هـو الآخر . ثم اخذ يضحك بصوت عال من شدة الفرح . وكانت تقول له مداعبة .

— لماذا يا عزيزي لا نضحك ؟ الا نعرف كيف نعيش ؟ الا نعرف كيف نستنشق الهواء الصافي ؟ واخيراً ضربت كتفه خفيفاً وقالت . .

— لقد نسيت يا عزيزي فكتبت الرسالة بخط يدك . هل تظنني حمقاء الى هذا الحد ؟ . عندئذ رفع رأسه وقد اختفت الابتسامة من على ثغره . وعاد وحاول ان يبتسم مرة أخرى دون ان يتمكن . . . ومرت الوان كالحة امـام عينيه كادت ان تصبغ كل شيء في البيت بلونها الكالح . وأخذ شيء مبهم يتلوى في اعماقه كالافعى . فهز رأسه وكأنه يريد ان ينفض عن نفسه كاهل السنين . انه لا يدع نفسه يتخبط في هذا الظلام . ولا يترك ميدان المعركة لهذه الافعى مستسلماً . آه ! لقد انقشعت عنه هذه السحب القاتمة . كل شيء يبدو مضاء بنور ساطع جداً . وهـا ان الحياة

تقبل عليه حلوة جميلة . لذلك قفز من مكانه فجأة راكضاً نحوها فاحاط رأسها بين يديه وهو يضحك كالمجنون ويقول .

— هل كنت تتصورين آني كنت اقدر على العيش من دونك ؟ ولا اخفي عليك باني كنت افكر صباح هذا اليوم بالانفصال . فانتفضت في مكانها كمن لسعته النار . واخذت تحملق فيه بعينين متسعتين . ثم اطلقت ضحكة عالية وهي تقول . .

— اعرف انك انسان عاقل . ولهذا لم تقدم على مثل ذلك العمل . لم يكن يبدو ان المكان سيدخله الصمت بعد الآن . لقد اتسع اطار النافذة المطلة على البيوت المجاورة بدرجة أخذت تشمل الحياة كلها . كان عادل يشعر منذ اللحظة بان صدره قد تفتح . وانفتح الباب امام نفسه لتنطلق للعيش على الرحب . لقد انزاح ثقل كبير كان يجثم على صدره . انه يلعن فترة سوداء ذهبت من عمره سدى ... والافكار تعاود من غير بد . من منهما قد انتصر ؟ انه يقول هو الذي قد انتصر . أو هكذا أخذ يقنع نفسه .

* *

ثمن إنسان

« ثم قهقه ضاحكاً عندما صاح في وجهه
وذرات اللعاب تتطاير من فمه كالمعتوه ..
اذهب للحكومة إن شئت . . . اذهب . »

الربيع في اربيل ، وزهور نيسان الجميلة ، والغيوم البيضاء التي تسبح في سماء الخريف الصافية، والاصدقاء يتمشون مساء كل يوم في طريق اربيل ـ كركوك واربيل ـ موصل التي ترشها سيارة البلدية بالماء ، كل هذا اصبح الآن شيئاً من الذكريات . ولكن يوم الأمس كان يوماً من أيام الخريف الذي لاينساه المرء .

كانت نسمات رقيقة تنعش الوجوه ، والشمس تميل نحو الغروب والناس يقصدون محطة القطار الذي يغادر في الساعة الخامسة ، أي بعد نصف ساعة . وبينا انا اسير على رصيف المحطة وإذا بي ارى حسن امامي ، وهو شيخ يبدو وقوراً جداً كان لابساً معطفه وبيده عصى يتكأ عليه . ويحمل حقيبة كبيرة في يده سرعان ما صعد بها في احدى العربات . ثم خرج يصافحني في شوق . كان قد مضى على اللقاء الأخير بيننا زهاء ثلاث سنوات كنت متلهفاً خلالها لسماع اخباره . ولم يكن في الوقت متسع لحديث طويل ، لذلك فقد دخل كل منا عربته على ان نلتقي في محطة بغداد عندما نصلها في صباح غد . دخلت الى العربة وعندما رتبت حقائبي في المكان المخصص لها ، وجلست لوحدي انظر خلال النافذة التي كانت مناظر المدينة تتخلف وراءها بدأت استعيد قصة هذا الرجل وما اذكره عنه . كان ذلك اليوم

يوماً عجيباً ولما يض على ثورة ١٤ تموز الاقرابة الشهرين ، عندما التقيت به آخر مرة يمشي على عجل على الطريق الموصل بين محطة القطار والطريق المؤدي الى كركوك ، كان الفرح يعم الناس في هذا اليوم الذي يقوم فيه الاحتفال بمناسبة وطنية ، فتلمس الرغبة الشديدة تدفع بالنفوس الى نشاط وحيوية فتراهم يتكلمون ويضحكون كثيراً ، بينما كان حسن يحرك يديه في مشيته قلقه ووجهه جامد صارم ورأسه شامخ وكأن يريد ان يخرج من اعماقه شيئاً ، بقي فيها كالصدأ لزمن طويل . لم يكن هذا غريباً ، لعلمي بقصة هذا الرجل الذي حدث له ما حدث في الأيام الماضية . وان لم يكن الناس لايعرفون كل هذا الآن أو يقضون اوقاتهم كما كانوا يفعلون في السابق في المشي مساء كل يوم في هذا الطريق ، وانما هم الآن في مكان الاحتفال الذي تتجه اليه . ولم يكن الناس يتهامسون فيما بينهم هنا كما كانوا يفعلون في السابق . وانما هم يتكلمون الآن بكل حرية وبصوت عال . كان حسن يشير لي بان الطريق مزدحم لانهم يسيرون لتنفيذ خطة ما ، وهم متفقون على الذهاب الى اتجاه معين . كان حسن في الخامسة والاربعين من عمره ، لازال يبدو قوياً في قامته الطويلة رزينا في خطواته الثقيلة ، كانت نظراته تبدو في حركة سريعة وكانها تقول لي ... سترى ماذا افعل اليوم . وعندما رأيت بعض الغموض فيما يقصده استفسرت عن ماضيه واين كان طوال هذه المدة . عندئذ ابتسم وهو يلتفت نحوي ونظراته تشع بالأمل ثم قال:

— نستطيع التكلم بحرية الآن . لقد تقوضت دعائم الاقطاع . ورأيته يهز رأسه بهدوء وهو يقول ... انا في القرية الآن ، عدت اليها بعد الثورة طبعاً ... قريتنا التي طردني منها ذلك الاغا الكلب . وهنا كان يؤشر بيده الى قصر فخم قائم على جانب من الطريق تحيط به الاشجار السامقة من الصنوبر والسرو . تأتي منها اصوات الطيور وتغريدها . ثم استمر قائلاً ...

— افنينا العمر في القرية . فكيف نقوى على فراقها الآن . ثم اقترب مني وهمس في اذني قائلاً : ـ

— اسكت . نحن ذاهبون الى القصر الآن . ولم افهم إن كان يقصد بانه اتفق مع البعض لعمل شيء ما . في هذه الاثناء كنت افكر في قصة هذا الرجل التي لوكتها المدينة ، عندما شيع عن ابنته سعادة في يوم من الايام ما شيع .

كان قد نزح بعائلته الى المدينة أثر طرده من القرية . فقد عمل في البداية حطاباً ، وكان يجلب الحطب من الجبل على ظهر ثلاثة حمير . فنشاهده في الاسبوع اكثر من مرة ، وهو يسير خلفها ويده العصا ينادي عالياً وبانفاس متلاحقه على من يشتري منه هذا الحطب . كانت اصواته تبدو مخنوقة وكانها تأتي من الاعماق فتضعف حتى تكاد تموت . بينما كانت ابواب البيوت كثيراً ما تبقى في صمتها الكئيب في الوقت الذي يمر من امامها وهو شاخص اليها بعيون حزينة كليلة ، ولم يكن يعود الى منزله الذي هو في الواقع كوخ صغير من الطين يقع في الطرف البعيد من المدينة إلاّ ويكون قد باع الحطب حتى وان كان ذلك بابخس الثمن ، فقد كان يحاول التخلص من الحطب لكي يريح من حمله هذه الحيوانات المسكينة التي لاتعرف النطق لتصرخ بوجه الانسان بالوضع الذي فيه مهما كان حملها ثقيلاً وعملها شاقاً فلابد من السكوت . وحتى اذا بقيت اياماً طويلة عده تدور بهذه الاحمال في شوارع وازقة المدينة دون ان يشتريها أحد . كان يصرخ وبصوت اعلى يكاد يفهم منه انه يتوسل الى من ينقذه من هذه المصيبة . ومضت اشهر وهو يبيع الحطب في المدينة ، بعد ان يذهب الى الجبل لقطع الاخشاب التي يحملها على ظهر الحيوانات تستغرق سفرته اياماً عدة ، يعرج خلالها احياناً الى القرى التي ينعم فيها ببعض الراحة أو يشرب هو والحمير قليلاً من الماء . بينما تمرق السيارات وهي تثير الغبار على امتداد الطريق المعبد وبسرعة جنونية نحو المدينة . ولم يطل

به الحال على هـــذا المنوال ، حيث انتشرت فجأة المدفأة المسماة (علاء الدين) وغيرها وغزت شركاتها سوق الحطب والفحم ، فاضطر حسن ان يترك عمله هـذا ، لأن الحطب الذي كان يجلبه ، كان يدور به عدة ايام للبيع دون جدوى . وعندما قيل له بان هذه الوسيلة من وسائل الحياة الشتائية قد انقرضت بفعل التطور الحضاري لم يستغرب من هـذا الامر ، لانه يعرف قصة مماثلة منذ سنوات طويلة ، قصة الطاحونة الهوائية والمائية التي كان الناس يقصدونها من القرى المجاورة لطحن الحبوب وعمل الدقيق والخبز . لهذا السبب فكر حسن في تغيير عمله بعمل آخر بعد حدوث هذا الطارىء ... وانا اذكر ذلك اليوم ، وكان الوقت صباحاً ، عندما كنت اسير في الشارع المؤدي الى سوق الخضراوات ، ورأيت حسن جالساً على الرصيف وقد وضع بجانبه حبل الحمالة والسلة ، بينما كان الحمالون الصغار الشياطين يداعبونه بسحب الحبل الذي كان يمسك بطرف منه وهو يضحك معهم ، ويتلفت فيما حوله في خجل وانفعال . لانه كان يخشى ان يظن به الناس بانه يلعب مع هؤلاء الصغار كالطفل . وعندما كان احد الزبائن يحضر في طلب حمال ، كان هؤلاء الصغار يتراكضون فيما بينهم ويتسابقون وهم يثيرون صخباً بضحكاتهم ، بينما يبقى حسن الذي لايقوى على الركض جامداً حائراً يدير عينيه الكليلتين في اطراف الشارع لعله يجد من يطلبه في حمل شيء . وكانت الساعات تمر ، وقرص الشمس يصعد في قبة السماء ، والحر يشتد في وسط النهار ، ومايزال حسن في صراعه مع الحياة ، والشيخوخة تشد اطرافه كالاخطبوط ويبقى الصغار يسدون عليه الطريق الذي يريد ان يسبقهم اليه لانهم يريدون مداعبته والضحك معه . واخـــيراً هز رأسه في حزن وهو ينظر الى قطع النقود الصغيرة في يده ويحدث نفسه ... لافائدة من هذا العمل ايضاً ، لان الشيطان يتربص لي . ثم استأجر دكاناً صغيراً كان قريباً من بيته الطيني الذي يقع في اقصى المدينة ، واخذ يبيع الجكليت والحلوى لاطفال

المحلة . كان ربحه في بيع كل مادة لايتجاوز الفلس او الفلسين فيكون ثمن ما يبيعه كل يوم قرابة ثلثمائة فلساً ، وبطرح قيمة هذه المبيعات يبقى الربح لايتجاوز المائة والخمسين فلساً لليوم الواحد . كذلك بقيت عائلته تعاني من عيشة الكفاف . حتى وجد ضنك العيش لايختلف في المدينة عما كان عليه في القرية ... القرية التي طرد منها بعد ان هدد بالقتل ... الامر الذي كان يعرف بانه غير عسير امام رؤساء القرى ، بل ان الأمر بالقتل من قبل صاحب القرية اشبه بـان يقول لخادمه اذهب واتني بقليل مـاء . وخصوصاً ان ابن الاغـا العاق الطائش الذي بصقت سعادة في وجهه أثر سماعها الكلام النابي منه كان يمكنه من ان يقنع اباه بمختلف الوسائل على ما يشاء ... لقد اشاع في القرية مرة من المرات ، بان حسن قـد وضع العلم الابيض على سطح كوخه ليثير الفلاحين للاضراب ضد الاغا . لكل هـذا اضطر حسن ان يطوي حبه للارض وللقرية ويغادرها بين جمع من المودعين الذين جاءوا ليصافحوا اقدم فلاح في القرية ، الذي كان لحظتئذ يتأبط رأس ابنته والدموع تترقرق في عينيه عندما يتبادل النظرات مع المودعين في صمت حزين . وفي المدينة التي نزح اليها لم تستقر العائلة في هناءة العيش ، وراح الكل يكدحون من اجـل لقمة الخبز . حسن يجلب الحطب ، وزوجته تغسل الملابس في البيوت المترفـه بالاجرة الاسبوعية . والتي وقعت بسببه فريسة مرض الروماتيزم الذي قـال عنه الطبيب انـه جـاء بنتيجة العمل المستمر في غسل الملابس في المكان الرطب والجو البارد . أما سعادة فقدكانت تخرج أحياناً لبيع البيض ، وخاصة في الأيام التي تبيض فيها الدجاجات التسـع سوية .

إلى أن جاء يوم ، وكانت العائلة على موعد لقـاء مع عزيز آغا الذي حضر الى الكوخ نادماً يطلب صفاء الخاطر ... كان جالساً قبالة المكان الذي جلس فيه حسن ، وقد أخفض عينيه وكأنه يعاني مما أرتكبه من ذنب ، ثم أخـذ يقدم

الاعتذارات عما أصابهم من سوء بسببه . ثم أخذ يشرح ظروفه والصعوبات التي يلاقيها بعد انتقاله الى المدينة لأن أولاده سيكملون دراستهم فيها . . . وأخيراً قال بأنه جاء وهو خجل ، جاء يطلب سعادة لتصبح مثل ابنته وتعيش كفرد من عائلته في القصر ، وتقوم بمشاركة زوجته وبناته بشؤون البيت . . .

عندئذ أخذ حسن يفكر في قلق وتردد وبقي صامتاً بعض الدقائق ، بينما كانت زوجته تنظر اليه بأشفاق وحزن . وعندما نفد صبرها على الجواب الذي انتظرته دون جدوى ، نهضت وهمست في أذنه قائلة ... لاينبغي أن تذهب البنت . وخصوصاً بعد أن أصبحت تبدو مكتملة جميلة . فهز حسن رأسه وهو يجيبها . . . ماذا نفعل . . لقد جاء الى هنا بنفسه . قالت وهي تهمس أيضاً : قل له اي شيء . . اوجد سبباً لذلك . . . ينبغي أن تبقى سعادة هنا في البيت . وفي هذه الأثناء كان عزيز آغا يبتسم لهما بعد ان لاحظ الهمس الذي دار بينهما ، ثم قال بلهجة تصنع بها الرقة . . . اطمئنوا . . . سوف اشتريها منكم . . . الآن . . . سأدفع لكم المبلغ حالاً . فوجيء الأب بذلك وقال بجد . . . نحن لانرغب في بيع البنت . . لأننا غير مضطرين الى ذلك . قال عزيز آغا باسماً : أنا لا اقصد القول بأنكم محتاجين اواني أنوي مساعدتكم مالياً . . . أبداً أبداً . . . وإنما اقصد ان اجعل من هذا المبلغ ثمناً رمزياً وأكون بذلك صاحب الحق والمسؤول عنها فتصبح واحدة من بناتي . . او اذا رغبتم فاني سوف اعقد قرانها على احد ابنائي كما جرت عليه العادة في مثل هذه الحال ، ولكي لا يبقى النظر اليها حراماً . . اي انها ستنعم بالعيش في القصر مع بقية اخوتها واخواتها والنظر اليها سيكون حلالاً . أهذا هو ثمن انسان؟ سكت الوالدان في حيرة وكأنهما يفكران في طرد شبح مخيف يكاد يطبق على انفاسهما الخناق . وهنا ضحك عزيز آغا بدهاء ثم ضرب بشدة على كتف حسن بظاهر يده جعله يترنح قليلاً وهو يقول . . انتما خائفان . . لماذا ؟ ثم قطب جبينه

وتصنع الجد في وجهه عندما اضاف يقول . . كان ينبغي ان ترضيا لأول وهلة . . . ولكن مما يظهر ان المدينة قد ضخمت من كبريائكما . . . ثم ان بنتكم ليست هي الاولى في بيتي . . . ان فاطمة التي اشتريتها قبل ثلاث سنوات اصبحت الآن تدير شؤون البيت كلها . مفاتيح البيت . الصناديق .. النفائس كلها تحت تصرفها ، وان زوجتي التي تتربع في غرفتها ، ليست لها علاقة بكل هذا . لماذا ؟ لان فاطمة فتاة ذكية ومخلصة للغاية . ثم وضع يده على صدره مبتسماً يطمئنهما ، ثم جعل ينظر صامتاً لحظة وكأنه سيقول القول الفاصل الخطير هذا . . . انا المسؤول عن كل شيء فيما بعد . وبعد هذا الكلام سكت الجميع ، وبدا الجو كئيباً وكأن كارثة كبيرة اذنت بالوقوع . في الوقت الذي كان عزيز آغا يختتم الصفقة بدفع عشرين ديناراً لحسن الذي بقي صامتاً طول الوقت فيما بعد ، وخرج عزيز آغا على ان تلتحق سعادة بالعمل في القصر ابتداء من صباح غد .

ومرت الايام والاشهر وسعادة ما زالت تعمل في القصر . بينما يذهب حسن ليطمئن على حالها هناك بين حين وآخر . كانت الامور تبدو عادية اول الامر ، ولكن حدث ما اربك التفكير والهدوء لدى الوالدين . لقد ذهب حسن الى القصر في يوم ما ، وضغط على جرس الباب فخرج اليه ابن الآغا وهو يبدو سكيراً واثار السهر تخنق وجهه الشاحب . كان يبتسم بخبث عندما قال . . . اهذا انت . . . لنا الشرف بقدومك . . . انها غير موجودة اولاً . . . وانك تسأل عنها كثيراً ثانياً . . . و و . . انت لا تملك الحق . . . فقاطعه حسن بغضب قائلاً . . . قل لها ان اباك يطلبك في البيت لأمر مهم وهمّ بالانصراف . . . وعندما سمع ابن الآغا هذا الكلام سخر منه ضاحكا وهو يردد مع نفسه . . . لأمر مهم . نعم لأمر مهم . ثم صفق الباب في وجهه بشدة وصوته ما زال يرن في اذنيه . . لأمر مهم . . هيه هيه . . . وذهب الابن مباشرة الى الحمام ، بينما كانت سعادة تبكي في المطبخ

لأن زوجة الآغا كانت قد امرتها بالحاح بأن تذهب الى الحمام وتغسل ظهر ابنها . وفي الطريق الى البيت كان حسن مثقل النفس بالهموم يفكر في تلك الابتسامة الماكرة . . . لهجته الخبيثة . . . وسخريته منه . . . لماذا ؟ لماذا ؟ انه يبحث عن الجواب دون جدوى والغضب يعتمل في صدره . ولهذا السبب دفع باب منزله بقوة بضربة عنيفة من قدمه مما القت الرعب والفزع في قلب زوجته التي كانت قد انتصبت عندئذ واقفة وهي ترتجف من شدة الخوف . وقبل ان تنطق هي بشيء بادرها قائلاً وهو يصيح بغضب . . . قررت ارجاعها . . اجل قررت ارجاعها . اتعرفين لماذا ؟ قررت ارجاعها . . . لماذا ترتجفين هكذا . . . السبب هو ذلك الابن الطائش . . . لا ادري ماذا حدث لها . . . انني افكر الآن كيف ادبر العشرين ديناراً . ولكن سوف احصل عليه حتى ولو بعت الدكان . . اجل حتى لو بقينا من غير طعام وحتى ان نموت جوعاً . . يا لله كيف تركتها تذهب . كيف لا ادري كيف ؟ ؟ ؟ . .

ولم يمض وقت طويل حتى كان حسن قد باع دكانه ، وقبض المبلغ بيده واتجه نحو القصر مسروراً وهو مصمم على ارجاع البنت الى البيت . وهنا فوجيء بما لم يكن في الحسبان . لقد اراد عزيز آغا تطبيق شروط الاتفاق التي تنص على الشراء لمدة ثلاث سنوات . ثم ان سحنته كانت قد انقلبت الى غير ما كانت عليه في اليوم الذي جاء يطلبها . . بل انه تكلم بلهجة جافة وبعصبية . هل تريدني ان اعطيكم سعادة ثم اذهب واستأجر فتاة صغيرة قميئة وسخة لتشتغل في البيت مع العلم ان اي فتاة في المدينة اليوم لا يمكن ان ترضى بخمسة دنانير اجوراً للعمل في الشهر الواحد . . . ابداً . . . ابداً . . واضاف قائلاً ثم انها هي بنفسها لاترضى الآن بالعودة الى حياة البؤس والفاقة بعد ان ذاقت طعم الحياة اللذيذ . عندئذ صاح حسن بغضب وبصوت يلجلج . . لتأت وتقول هذا بنفسها ايها المجنون

قال له عزيز آغا : انت المجنون ، لأنك تريد ان تفعل شيئاً هو ليس من ضمن طاقتك . . اذهب لمن تشاء . . ثم قهقه ضاحكا عندما صاح في وجهه وذرات اللعاب تتطاير من فمه كالمعتوه . . . اذهب للحكومة ان شئت . اذهب سوف تعرفني من انا . . وذهب حسن في غمرة العصبية يقدم الشكوى عليه وبثقة كبيرة في انه سيكسب الحق الى جانبه . ثم اخذ يراجع المسؤولين يومياً للوقوف على مصير القضية التي يتعلق بها مصير ابنته . . . واثناء مراجعاته للدوائر كان يتمتم مع نفسه فيجلب الى حاله الانظار . . . ابنتي هي اريدها . ها ؟ ! اليست هي ابنتي . كيف احـــرم منها . ومن يستطيع ان يغتصبها مني ؟ قولوا لي ها ؟ انني لست مجنوناً . واخيراً وجد نفسه امام المأمور الذي اخذ يتكلم معه وكأنه ينصحه عنـدما كان يقول . . لاتنس ايها الشيخ عوامل الجوع . كيف تريد من البنت ان تفضل الجوع على الغنى ؟ ثم هنالك مدة الاتفاق ثلاث سنوات . ان تدبيرك للمبلغ لايهم . . . وانك قد اخطأت ببيعك الدكان . . . ثم لماذا انك تقلق افكارك بهذا الشكل ، وتتصور ان سعادة في خطر . ابداً . وضحك وهو يقول وانصحك بأن تذهب الآن الى البيت وتنام انت وزوجتك قريري العنيين ، لأن تصوراتك ليست الا مجرد وهم . وختم كلامه قائلاً انك تتكلم كثيراً ولكن من يسمعك . من الافضل ان تسكت .

كان فجر ذلك اليوم ما يزال يحتفظ بقطرات الندى التي كانت تلتمع تحت اشعة الشمس ، والنسيم يهب بارداً في الشارع عندما انتشر خبر اخذت الافواه تلوكه بسرعة حتى اخترق المدينة من اقصاها الى اقصاها ... ماذا حدث ؟ خطف ابن الآغا احدى الخادمات من القصر . قام بالعمل في الليل ... ثم جاء بها الى القصر صباح هذا اليوم . . ثم ماذا حدث بالتفصيل ؟ لا احد يعرف اكثر من هذا ، سوى ان ضجيجاً وصياحاً يدور الآن في القصر بين الاب وابنه والآخرين . ثم ماذا ؟ ان الاب يصر على اخذ الفتاة الى المستشفى . . . والابن ؟ لقد ضربه ابوه بالعصا مما اضطره ان

يهرب الى غرفته ويغلق الباب على نفسه ثم يغط في نوم عميق . وفي الشارع ، وبين صفوف الناس ، كان حسن يركض كالمجنون وقد شهر خنجره من غمده وهو يصيح عالياً وبصوت متهدج كأن نياط قلبه تتقطع معه . . . سوف اقتلهم كلهم . اسمعوا جميعاً سوف اقتلهم . ولكن هذا لم يطل كثيراً . فأن بعض الايدي قبضت على رسغه فجأة وسرعان ما اودع في التوقيف بتهمة الشروع بالقتل . ووقف حسن وهو يكاد يعصر بيديه قضبان الباب الحديدية وعيناه تبكيان في صمت ، يفكر في ابنته التي تمرغت في الوحل ، في الوقت الذي كان الناس متجمهرين حول المستشفى مستغربين من هول ما حدث ويريدون معرفة مصير الفتاة ، بينما كان عزيز آغا واخوته الذين جلسوا على الكراسي الوثيرة في المستشفى يشاركون في امر تقرير هذا المصير في جو من الضحك والمرح . واخيراً خرجوا بسياراتهم الفارهة مسرورين بصدور التقرير الذي جاء يثبت براءتهم ، في الوقت الذي كانت العصي تعمل في تفريق الجمهور الذي شهد نهاية هذه المأساة وراح يرغي ويزبد بشعور الحنق والغضب والتذمر .

وجاء اليوم الذي اطلق فيه سراح حسن . وخرج الى الشارع ثائراً وهو يفتح ذراعيه الى الناس لانه يعتقد ان ما من أحد الا وسمع بقصته . فكان يقول : الا تعرفون أين هي الآن ؟ ثم ذهبت الى البيت ، ورأت زوجته على فراش المرض وقد غدت نحيفه للغايه فألقى بنفسه على سريرها وهو يقول . . اين هي . . أنت أيضاً لاتعرفين ؟ كانت زوجته تبكي بغزارة عندما اجابت قائلة . . لقد سافرت الى جهة مجهولة . . .

ومرت سنوات وعبثاً حاول حسن ان يعثر عليها . . . كنت التقي به أحياناً وكنت الاحظ عليه مبلغ الالم الذي يتجرعه عندما يتكلم عنها ووجهه يتقلص ويقول : سوف اعثر عليها حتى وان كانت في آخر الدنيا . كان يقول هذا وهو يعاني من

العذاب النفسي الذي يستشعره اذ يتمثل شبح الفضيحة الذي يلاحقه اينما ذهب . لقد قال لي مرة رأيته فيها . بالمصادفة ، وكان مطأطأ الرأس يغلب التمرد على لهجته الحزينة . قال . . انها في الموصل الآن . وفي الدواسة . وانت تعرف معنى الدواسة . قال هذا وانا ارى وجهه كيف يعاني من الجهد وكأنه كان يقتطع الكلام من احشاءه . ثم انقلبت سحنة وجهه وبدأ الشرر يتطاير من عينيه عندما التفت الي يقول ... سوف اقتلها دون شك حالما اجدها . وسيأتي اليوم الذي تسمع فيه وسيسمع الناس جميعاً كيف اني اخلصت نفسي من عارها . واضاف قائلاً سافعل هذا ولو بقي لي من العمر يوم واحد فقط .

وسارت الجماهير الى مكان الاحتفال ، وكان حسن مايزال يسير قريباً عني ، كانت علائم وجهه تبدو صارمة قوية عندما التفت الي وابتسم وبدا وجهه محتقناً بالدم مثل الحياة التي خزنت آلامه حتى كادت ان تنفجر بها . وفجأة سمعت حسن يقف امام القصر ، وكان يقع على طرف من الشارع ويصيح باعلى صوته فيستوقف الجمهور . .

— هذا الملعون في القصر هو الذي اسقط ابنتي في الهاوية . . .

— من هو ؟

— عزيز آغا . . . ، عزيز آغا ؟؟؟... وهنا سرت موجة من الغضب شملت وجوه الجمهور كلها ، واخذت الدماء ، تفور برائحة الانتقام واصوات تنطلق .

— هذا الملعون هو الذي طردني من القرية .

— وهو الذي سلبني داري وارضي التي كنت ازرعها بنفسي طوال سنوات .

— هذا النذل هو الذي ارسل ابني الى السجن في العهد المباد لانه كان صاحب النفوذ .

وأخيراً صاح حسن باعلى صوته حتى كادت نياط حنجرته تتقطع . .

— لقد طردني من القرية ... هل تعرفون ماذا حصل بعد . انكم تعرفون ولاشك ، وصاح عالياً . تعرفون تفاصيل هـذه القصة .. اتسمعون ـ لقد اصبحت ابنتي موسراً . تلك العذراء الجميلة سعادة . وكان يركض وهويلوح بقبضته والدموع تترقرق في عينيه من شدة الغضب عندما يصيح : ـ

— اجل اصبحت موسراً . ثم خفت صوته كأنه يبكي : كانت المسكينة تستجدي النقود من الناس اول الامر ، فيقولون لها : هـذه حيلة . آخ من بعض الناس .

وكان الشارع يغص بالناس ، والحجارة تتساقط على القصر فتكسر فيه زجاجات النوافذ وتهدم اطرافه بين صخب وضجيج . ومرت دقائق . ثم هدأت الحال بعد ان تم العمل لمن اراد التنفيس عن اثقال الهموم المخزونة التي خرجت معها دفقات من الشعور بالارتياح بعد ان كانت قد تكدست عليه المظالم والقسوة وحب الانتقام . وعندما سارت الجماهير وخلفت وراءها القصر تحيط به اكوام من الحجارة التي بقيت تنطوي على جذور عميقة لقصص البؤس والشقاء . عندئذ التفت الي حسن وقـال ..

— لم يخرج الرجل الذي قال لي يوماً .. اذهب وسوف تعرفني من أنا . ثم قهقه عالياً وقال : لقد عرف نفسه اليوم .

هذه هي القصة التي كنت استعيد تفاصيلها بينما كنت جالساً في عربة القطار . كانت الساعة تشير الى ما بعد منتصف الليل عندما فتح الباب ودخل حسن الذي قصد مقصورتي فبادرني بضحكة رقيقة بعد ان اخذ مكانه بجانبي وقال ..

— لقد ذهبت تلك السنوات . وذهبت معها المخالب التي كانت تخفي الجرائم . لهذا السبب ترى الآن ، وقد ظهرت كل شيء على حقيقته . فسألته قائلاً :

— لقد سمعت ان شخصاً قتل سعادة في حال السكر . هل هذا صحيح ؟

فقهقه حسن عالياً وضرب بيده على كتفي وهو يقول . .

— تقصد ان سعادة ماتت في الدواسة ... هـا . هـا . وكيف ؟ بضربة قنينة على رأسها ها . هـا . . . ويضربها سكير فيقتلها ها . هـا . . . وبعد ان ضحك بملء شدقيه وظل يضحك طويلاً حسب ما يشتهي ، سكت قليلاً وبدا وجهه جدياً اكثر فقال . .

— على أي حال . . . انني ذاهب الليلة الى بغداد ، لانني سمعت بانهـا تعيش هناك الآن .. وانـا لا احقد عليها في الوقت الحاضر كما كنت افعل سابقاً ... وسوف اقبلها لاول وهلة التقي بها . . . وخصوصاً فان المجرم الحقيقي ظهر للعيان كما وجدت . . ثم اضاف وهو يرفع حاجبيه . وسوف يحاسب حساباً شديداً . . ثم اتسعت عيناه واحتقن وجهه حتى اصبح قانياً ، ثم ضحك كالمجنون وقال من خلال ضحكه . . . ارأيت القصر . . . لقد سـار القطار وتخلف وراءه . . . اجل سيحاسب . . . فالحكومة اليوم موجودة فعلاً . . . .

* * *

صمم الغلاف : فنان مجهول

*PB-19400
5-20
C

نيسان ١٩٦٢

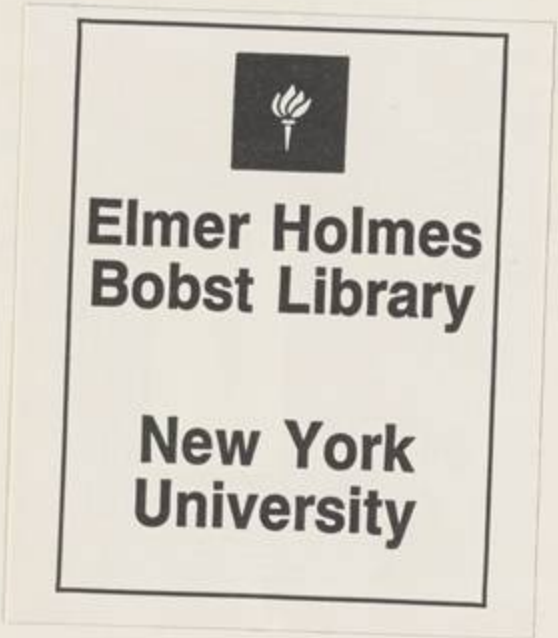
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

NYU - BOBST
31142 01242 6022
PJ7828.M49345 G5 1962 Ghadan ya'

- غدا سيكون يوما رائعا ·
- انك مازلت تقول هذا منذ اشهر ·

ـ غدا ·

- شاطئ صفاز هذا اليوم ، عندما يتكلمون عن الزواج·
- الان اشعر بنفسي منشرحة · لقد بدأت ارى طريقي الآن ·
- انى هم جنت افكر بهالشكل · هى وين ما تصـــير خلي تصير ·
- حتى فى باص المصلحة · هنالك فارق كبير ·
- من منهما قد انتصر ؟ إنه يقول هو ، او هكذا اخذ يقنع نفسه ·

·····

·····

·····

PJ
7828
.M49345
.G5
1962
c.1

(جميع الحقوق محفوظة للمؤلف)

الثمن ١٢٠ فلس